

أنطون تشيكوف

قصة رجل مجهول

تعريب محمود الشبلي



دار الكاتب المصري

قصة رجل مجهول

أنطون تشيكوف

قصة رجل مجهول

تعرّيب محمود السقّطى



دار الكاتب المصرى

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

العنوان الاصلى للكتاب

بالانجليزية

ANTON TCHEKOV

AN ANONYMOUS STORY

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

اضطرت لأسباب ليس هذا وقت تفصيلها أن أدخل في خدمة موظف بطرجى اسمه أورلوف . كنت أعمل خادماً له ، وكان في قرابة الخامسة والثلاثين ، يدعى جورجي إيفانتش . تقدمت إلى خدمة أورلوف هذا إذ كان والده سياسياً ناهياً أراه خصماً عنيداً لمبدئى السياسى . وقد ظننت أنى باقامتى مع ابنه ، أستطيع من الأحاديث التى أسمعها ، ومن الخطابات والأوراق التى أجدها على المائدة ، أن أعلم كل صغيرة وكبيرة من خطط الأب ونياته .

كان الجرس الكهربائى يرن بغرفتى فى الساعة الحادية عشرة ليبدأنى على أن سيدى قد استيقظ . فلماذا ذهبت إلى غرفة النوم بجذائمه الملمع وثيابه النظفة ، وجدته جالساً على فراشه لا يبدو على وجهه أثر الوسن ، بل أثر الاجهاد من النوم ، وهو يحرق فى ناحية ، ولا يظهر عليه الرضا باليقظة . كنت أعينه على ارتداء ملابسه ، فيدعنى أفعل ذلك فى شئ من الازدراء ، ودون أن يتكلم أو يلحظ وجودى . ثم يذهب إلى غرفة المائدة ورأسه مبتل ينفخ بالعطر ، وهناك يشرب القهوة . كان يجلس

إلى المائدة يرشف قهوته ويتصفح الجرائد ؛ بينما أقف أنا والخادم بوليا عند الباب فى احترام نحدق إليه . كان على شخصين راشدين أن يقفا ويرقبا بعناية فائقة شخصاً ثالثاً يشرب القهوة ويمضغ الكعك . قد يبعث ذلك على الضحك والسخرية ، ولكنى لم أكن أرى فى وقوفى إلى جانب الباب ما يزرى بى ، وإن كنت مثل أورلوف نفسه محتدأ وثقافة .

كنت مريضاً بالسل فى أولى مراحلها ، وكنت أعانى من شئ آخر ، ربما كان أدهى من السل . لست أدرى أكان ذلك من أثر العلة ، أم لأن فلسفتى فى الحياة أخذت تتبدل تبديلاً لم أكن أعياه إذ ذاك ، ولكن شغفاً جارفاً مثيراً بالحياة اليومية العادية راح يستولى على يومياً بعد يوم . كنت أتوق إلى الهدوء الذهنى ، والصحة والهواء النقى والطعام الجيد . بدأت أغدو رجلاً حالمًا ، وأصبحت — شأن الحالم — لا أعرف بالدقة ما أريد . فحيناً أود لو ذهبت إلى دير ، أجلس فيه أياماً إلى جوار النافذة ، أرنو إلى الأشجار والحقول ؛ وحيناً أفكر فى أن أشتري خمسة عشر فداناً وأعيش فيها كالسيد الريفى ؛ وحيناً أعاهد نفسى على أن أشتغل بالعلم وأصبح أستاذاً فى إحدى جامعات الأقاليم . وكنت ملازماً بحرياً متقاعدًا ، فكنت أحلم بالبحر ، وبعمارتى ، وبالسفينة التى طفت بها حول العالم . وكنت أحن من جديد إلى التجربة ، إلى ذلك الشعور الذى لا يوصف ، يحسه المرء وهو يسير فى الغابة الاستوائية ، أو يشهد الغروب فى خليج البنغال ، فتزهه إلى الوطن النشوة

والحنين معاً . كنت أحلم بالجبال والنساء والموسيقى ، وأنظر إلى وجوه الناس في تطلع الطفل ، وأنصت إلى أصواتهم . وحين كنت أقف بالباب وأرقب أورلوف وهو يرشف قهوته ، لم أكن أحس أنى خادم بل رجل يشوقه كل ما في الوجود حتى أورلوف .

كان أورلوف في مظهره مثالا للبترجي ، فهو ضيق الأكتاف ، طويل الخصر ، غائر الصدغين ، ذو عينين لا تقطع فيهما بلون ، وشعره أغبر قليل ، وله لحية وشارب ، وكان وجهه أكمد منفراً ، وإن اشتدت عنايته به . تظهر نفرتة بخاصة حين ينام أو يستغرق في التفكير . وبعد فليس ما يدعو إلى أن نصف طلعة جد عادية ، ثم إن بطرسبرج ليست أسبانيا ؛ فليس لطلعة الرجل كبير شأن حتى في أمور الحب ، والحسن لا يطلب إلا في خادم أو سائق عربية . وإنما تحدثت عن وجه أورلوف وشعره ، لأن مظهر أورلوف فيه شيء يستحق الذكر . فهو حين يتناول صحيفة أو كتاباً من الكتب ، أو حين يلقي أناساً من الناس ، تلوح في عينيه بسملة استهزاء ، ويشيع على وجهه تعبير من السخرية لا يشف عن حقد . كان يعد السخرية دائماً لكل ما يسمع وما يقرأ كما يعد المتوحش مجنه . كانت سخريته عادة جرى عليها ، فكأنها خمر عتقت منذ أعوام ، فهي تعلو وجهه الآن وقد لا يكون لإرادته دخل في ذلك ، فكأنها فعل منعكس . ولكنى سأحدث عن ذلك فيما بعد .

كان يأخذ حافظته المليئة بالأوراق ، بعد الظهر بقليل ويذهب إلى مكتبه ، وكان يتناول عشاءه خارج المنزل ويعود بعد الثامنة . وكنت أوقد المصباح والشموع في حجرة مكتبه ويجلس هو في كرسیه الواطى وقد مد ساقیه على كرسى آخر ، ويضطجع في جلسته ثم يأخذ في القراءة . كان يأتى في أكثر الأيام بكتب جديدة ، أو تأتيه رزم منها من المكاتب ، فكانت هناك أكوام من الكتب بلغات ثلاث — هذا عدا الروسية — قرأها ثم ألقاها في أركان غرفتى وتحت فراشى . كان يقرأ بسرعة غريبة . يقولون : « أخبرنى بما تقرأ ، أخبرك من أنت . » وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه يستحيل أن نحكم على أورلوف بما يقرأ . كان يقرأ أخلاقاً : فلسفة وأدباً فرنسياً واقتصاداً سياسياً ومالية ، وشعراء محدثين ، ومنشورات من دار بوزردنك (١) — كان يقرأها جميعاً بسرعة واحدة ، وفي عينيه ذلك التعبير الساخر .

كان بعد الساعة العاشرة بقليل يرتدى ملابسه بعناية — وهى ثوب السهرة غالباً وقل أن يرتدى بزه الصالون الألمانية — ويذهب ليعود في الصباح .

كانت علاقاتنا هادئة وادعة ، ولم يحدث بيننا قط خلاف ، وكان — فى العادة — لا يلحظ وجودى ، فإذا حادثنى لم يرتسم

(١) دار نشر كانت تطبع الكتب الادبية طبعات شعبية تبيعها في الفلاحين .

على وجهه شئ من السخرية — إنه يكن لم يعتبرنى فيما يظهر واحداً من البشر .

لم أره غاضباً غير مرة واحدة ، وكان ذلك بعد أسبوع من خدمتى عنده ، فقد عاد يوماً فى الساعة التاسعة بعد أن تعشى فى مكان ما ، وكان يبدو على وجهه الضيق والاجهاد . قال حين تبعته إلى حجرة المكتب لأوقد الشموع :

— فى المسكن ريح كريهة .

أجبت :

— كلا . إن الهواء نقى .

قال محتدأ :

— قلت لك إن هناك ريحاً كريهة .

— أنا أفتح النوافذ كل يوم .

صاح بى :

— لا تجادل يا غبى .

كدت أجيبه ، ويعلم الله ما كان يؤدى إليه ذلك ، لولا تدخل بوليا التى كانت أعرف بسيدها منى . قالت وهى ترفع حاجبيها :

— هناك لا شك ريح كريهة . كيف أتت ؟ افتح

يا استيفان زجاج الثوى وأوقد النار .

ودهبى تجوس خلال الغرف كلها وهى تصيح متعجبة ، وتجرجر أذيالها ، وتنثف العطر من الرشاشة . ولم يكن الضيق قد زایل أورلوف بعد ولكنه كان يكبح ضيقه كبحاً . كان

جالساً إلى النضد يسرع فى كتابة رسالة ، وبعد أن خط بضعة سطر ، زفر غاضباً ومزقها ، ثم بدأ فى الكتابة من جديد .
تمت :

— لعنهم الله جميعاً ! إنهم يريدون أن تكون لى ذاكرة خارقة .

كتب الخطاب أخيراً ، ونهض عن النضد وقال وهو يلتفت إلى :

— إذهب إلى شارع زنامنسكى ، وسلم هذا الخطاب إلى زينايدا فيودورفنا كراسنوفسكى يدّاً بيد . واسأل البواب أولاً عما إذا كان زوجها — أعنى السيد كراسنوفسكى — قد عاد . فإذا كان قد عاد فلا تسلم الخطاب وارجع . انتظر دقيقة ! . . . إذا سألتك أعندى هنا أحد ، قل إن معى سيدين منذ الثامنة يكتبان شيئاً .

ركبت عربة إلى شارع زنامنسكى ، فأخبرت البواب بأن السيد كراسنوفسكى لم يعد بعد ، فصعدت إلى الطبقة الثالثة حيث فتح لى الباب خادم طويل عريض أسمر أسود العارضين ، وسألنى عما أريد بصوت وسمان غير آبه ، هو الصوت الذى يختص به الخدم حين يحدثون أسئالهم ، وقبل أن أجيب دخلت تهرول إلى القاعة سيدة ترتدى السواد . خزت عينها ونظرت إلى .

سألتُ :

— هل زينايدا فيودورفنا بالمنزل ؟

قالت السيدة :

— أنا زينايدا .

— إليك خطاباً من جورجى إيفانتش .

فضت الخطاب نافذة الصبر ، وقد أمسكته بكلتا يديها حتى رأيت خواتمها الماسية البراقة ، وبدأت تقرأ . بدا لى منها وجه شاحب ناعم الملامح ، وذقن بارز وأهداب طويلة سود . لم يكن مظهرها يدل على أنها تعدو الخامسة والعشرين . قالت حين انتهت من تلاوة الخطاب :

— بلغه شكرى وتحياتى .

ثم سألتنى بلطف ومرح وهى كالخجلة من سوء ظنها :

— أهنأك أحد مع جورجى إيفانتش ؟

قلت :

— سيدان . يكتبان شيئاً .

فغادت تقول :

— بلغه تحياتى وشكرى .

ومالت برأسها وغادرت المكان بهدوء وهى تقرأ الخطاب

فى سيرها .

كنت قد رأيت فى ذلك الوقت نساء قليلات ، فأثرت فى نفس هذه السيدة التى لم أر منها غير لمحة عابرة ، وأخذت وأنا عائداً إلى الدار أسترجع محياها ، والعطر اللطيف المطيف بها ، واستولت على الأحلام ، وحين وصلت إلى المنزل كان أورلوف قد غادره .

هكذا كانت علاقاتى بمخدومى هادئة وادعة ، على أنى كنت أحس كل يوم بالدنس والهوان اللذين خفتهما حين أصبحت خادماً . لم أتفق مع بوليا ، وكانت فتاة لفاء سميئة ، تعبد أورلوف لأنه سيد ، وتحترقنى لأنى خادم . وربما كانت فى نظر الخادم أو الطاهى الحق ، فتاة رائعة ، بخدودها الحمر ، وأنفها الصاعد الأرنبة ، ونظراتها الغزلة ، وامتلأها بل سماتها . كانت تزين وجهها بالمساحيق ، وتدم شفيتها ، وترجع حاجبها ، وتحبك جسمها ، وتصلح قوامها بحشية ، وتلبس عقداً من النقود . كانت تتخطر فى مشيتها ، وتتثنى فى سيرها أو كما يقال ، تهز الأكتاف والعجز . كان حفيف ثوبها ، وأزيز حابكتها ، ورنين عقدتها ، والرائحة المبتذلة التى تنبعث من دسامها الزيتى وعطرها الرخيص ، والطيب المسروق من سيدها — كان ذلك كله يشعرنى وأنا أسوى الغرف معها فى الصباح كأنى أشاركها فى نوع من الإثام .

كرهتنى منذ اليوم الأول ، وربما كان ذلك لأنى لم أكن أسرق مثلها ، أو لأنى لم أبد رغبة ما فى تعشقها ، فرأت فى ذلك إهانة لها ، أو لأنها شعرت بأنى رجل من طبقة غير طبقتها . وكانت قلة تجربتى ومظهرى الذى لا يشبه مظهر الخادم ومرضى ، أسوراً تبدو لها باعثة على الرثاء ومثيرة للتقزز . كنت إذ ذاك أسعل سعالاً قبيحاً ، وكنت فى بعض الليالى أحول بينها وبين

النوم ، إذ لم يكن يفصل بين غرفتيها سوى حاجز خشبي .
كانت تقول لى كل صباح :

— لقد أرقنتى الليلة أيضاً . كان ينبغي أن تكون فى
المستشفى لا فى الخدمة .

وكانت لا تكاد تؤمن بأنى بشر مثلها بل شئ أدنى
منها درجات . ولذلك كانت — شأن النساء الرومانيات اللواتى
لم يكن ينجلن من الاستحمام بمراى من عبيدهن — ربما مشت
أمامى عارية إلا من قميص .

سألته مرة على العشاء (وكان يأتينا من المطعم كل يوم
حساء ولحم مشوى) وكنت فى حال من السعادة والحلم :
— أتؤمنين بالله يا بوليا ؟

— إى . بالطبع !

فمضيت أقول :

— أنت إذن تؤمنين بيوم حساب يسألنا فيه الله عن كل
ما ارتكبنا من شر ؟

لم تجب ، بل زوت لى وجهها باحتقار ، وحين نظرت تلك
المرّة إلى عينيها الباردتين وإلى علائم التخمّة البادية عليها ،
أدركت أن تلك الشخصية الكاملة التامة لم تكن تعترف
بوجود إله أو ضمير أو قانون ، وأنى ما كنت أستطيع أن
أبتاع شريكاً خيراً منها لو أنى اضطررت إلى اضرام النار فى
المنزل أو إلى القتل أو الساب .

شعرت بالضيق فى بيتى الجديدة ، ومضى على أسبوع

في بيت أورلوف قبل أن أعتاد ندائي « بأنت » ، واضطراري دائماً إلى الكذب (فأقول إن سیدی ليس بالمنزل وهو فيه) . كنت أشعر وأنا ألبس سترة الخادم المذيلة كأني ألبس درعاً ولكني اعتدتها بعد حين . وكنت كالخادم الحق . أقف عند مائدة الطعام وأسوي الغرف ، وأؤدي الطلبات في الخارج ، وحين كان أورلوف يريد التخلص من موعد له مع زينايدا فيودورفنا أو حين ينسى أنه وعدها بالزيارة ، كنت أذهب إلى شارع زنامنسكي فأدس في يدها خطاباً وأكذب كذبة . وقد كانت لذلك كله نتيجة تختلف اختلافاً تاماً عما توقعته حين أصبحت خادماً . كان كل يوم يمضي في حياتي الجديدة هذه يضيع على وعلى جهادي السياسي ، فإن أورلوف لم يكن يتحدث عن أبيه قط ، وكذا شأن زواره . وكل ما استطعت أن أعرفه من أعمال السياسي كان — شأنه من قبل — مما أجمعه من الصحف أو من مراسلاتي مع رفاقي . ولم يكن لمئات المذكرات والأوراق التي كنت أجدها في حجرة المكتب وأقرأها ، علاقة ما بما كنت أبحث عنه . كان أورلوف لا يهتم بعمل أبيه السياسي في شيء ، ويبدو كأنه لم يسمع به قط، أو كأن والده قد مات منذ زمن بعيد .

كان يزورنا كل خميس زوار .
فأطلب من المطعم قطعة لحم مشوى ، وأطلب من اليزيف

بالتليفون أن يرسل إلينا بطارخ وجبناً ومحاراً . . الخ ،
وأشترى ورق اللعب . وتشغل بوليا النهار كله في إعداد
أدوات الشاي وصحاف العشاء . ولا أكتمك أن تلك الهزة
من النشاط كانت تبدل من حياتنا الكسلى تبديلاً لطيفاً .
كانت أيام الخميس أحب أيامنا .

لم يكن يأتينا غير ثلاثة زوار . أهمهم ، ولعله أحقهم
بالعناية ، ذلك الذى يدعى بيكارسكى - وهو رجل طويل نحيل
في الخامسة والأربعين ، أقى الأنف ، ذو لحية كبيرة سوداء
وفى رأسه شئ من الصلع . كانت عيناه كبيرتين بارزتين ،
ووجهه كوجه الفيلسوف اليونانى يرتسم عليه الجد والتفكير .
كان عضواً في مجلس إدارة بعض السكك الحديدية وكانت له
أيضاً وظيفة ما في مصرف ، وكان محامياً استشارياً في بعض
المعاهد الحكومية الهامة وكانت له علاقات خاصة بكثير من
الناس إذ كان وكيلاً أو كان رئيساً لبعض الهيئات . كانت
درجته الحكومية صغيرة ، وكان يقول عن نفسه إنه محام
متواضع ، ولكن نفوذه كان كبيراً . كانت الكلمة منه أو
البطاقة تكفى لأن تجعل المرء طيباً شهيراً ، أو مديراً لخط
حديدى أو تفتح باب عظيم من العطاء دون انتظار ، وكان
يقال إن المرء برعايته يستطيع أن ينال وظيفة في « الكدر » ، وأن
تستر له أية فضيحة . وكان الناس يرونه ذكياً حاد الذكاء ،
ولكن ذكائه كان غريباً فريداً ، كان يستطيع في لحظة أن
يضرب ٢١٣ × ٣٧٣ شفاهاً ، أو يحول الجنيهات الإنجليزية

إلى ماركات ألمانية دون استعانة بقلم أو ورق . كان يفهم المالية وأعمال السكك الحديدية فهماً تاماً ، ولم يكن من السهل التغلب عليه في القانون ، ولكن ذلك الذكاء الخارق لم يكن يستطيع الامام بأشياء ربما فهمها بعض الأغبياء من الناس . هو ، مثلاً ، لم يكن يدرك لم يكتبب الناس ، ولم يكون ويقتلون أنفسهم بل غيرهم ، لم يعنون أنفسهم بأشياء لا تتصل بأشخاصهم ، ولم يضحكون حين يقرءون جوجول أو شتشرين كان كل شيء مجرد ، كل شيء يتصل بعالم الفكر والإحساس ، يستمه ويستغلق عليه ، كالوسيقى عند رجل لا أذن له . كان ينظر إلى الناس نظرة عملية وحسب ، ويقسمهم إلى أكفاء وغير أكفاء ، ولا وجود عنده لغير هذا التقسيم . ولم يكن الشرف والاستقامة إلا من دلائل الكفاءة . . . والشراب والمقامرة والعهركلها مباح إذا لم يعترض سبيل العمل . الإيمان بالله نوع من الغباء ، ولكن حماية الدين واجبة ، لأنه ينبغي أن يكون للعامة سلطان يكبحهم ، وإلا لما عملوا . لا يلزم العقاب إلا للتخويف . لا داعي للرحيل في العطلات فإن المدن نظيفة أيضاً ، إلى غير ذلك . كان أرسل — ولم يكن له أطفال — ولكنه كان يعيش في سعة كأن له أسرة ، ويدفع ثلاثة آلاف روبل في السنة إيجاراً لمسكنه .

وكان الزائر الثاني — كوكوشكين ، وهو عضو في مجلس البلدية وإن يكن شاباً — رجلاً قصيراً ، يسترعى النظر بمظهره لافتقاد التناسق بين جسده البدين المنتفخ ووجهه

النحيل الصغير . انفرجت شفتاه في تल्पف ، وبدا شاربه الصغير الشذب كأنه لصق بالغراء . كان رجلا له خلأق الفهد . لم يكن یمشى ، بل قل یزحف بخطوات قصيرة وهو یتوقل ویتضحك ، فاذا ضحك بدت أسنانه . كان كاتبا مكلفا ببعض الشئون ، ولكنه لا یمعل شیئا ، وإن تقاضى راتبا طیبا ، وبخاصة فی الصیف ، حین كانت تیسر له بعض الأعمال الخاصة المربحة . كان رجلا ذا مطامع شخصية ، لا تستقر فی نخاع عظامه بل تغوص إلى آخر قطرة من دمه . ولكنه كان حقیرا حتی فی مطامحه ، ولم يكن یعتمد على نفسه — بل ینى حیاته على أساس النعم التى یغدقها علیه الرؤساء . لم يكن یجد بأسا فی أن یمرض نفسه لصنوف المذلة ، فیرجو ویتملق ، ویعد ، حتى ینال وساما أجنبیا ، أو یدكر اسمه فی الصحف فی عمل خاص بصحبة بعض الشخصیات الكبيرة . كان یتملق أورلوف ویکارسکی عن جبن ، إذ یظن لهما نفوذا ، وكان یتملق بولیا ویتملقنى إذ كنا فی خدمة رجل ذى نفوذ . ما نزلت عنه سترة الفراء إلا تضاحك وسألنى :

— ستیفان . أنت متزوج ؟

ثم تتلو ذلك حاقات فارغة إظهارا لعنايته الفائقة بى . كان کوکوشکین یتملق ضعف أورلوف ، یتملح بمجونه وإفراطه فی اللذة ، ویتکلف لارضائه السخرية اللاذعة والإلحاد ، وینقد فی حضرته أشخاصا إذا لقیهم فی أماكن أخرى تمسح بأقدامهم فی ذلة . وحين یتحدثون على العشاء عن

الحب والنساء ، يزعم أنه فاجر خليع . ويمكن أن نقول إن محبان بطرسبرج مغرمون بالحديث عن ميولهم الشاذة : يقنع موظف شاب من المجلس البلدى بعناق طاهية ، أو بفتاة بائسة من رائدات طريق نفسكى ، ولكنك إذا أصغيت إليه ظننته موبوءاً بكل شرور الشرق والغرب مجتمعة ، وأنه عضو فخرى فى عدة من الجاعات السرية المجرمة ، وأن الشرطة تراقبه . كان كوكوشكين يتحدث عن نفسه بالأكاذيب ، لا يرمى فى ذلك ضميراً ، وكانوا فى الحقيقة لا يصدقونه ، ولكنهم يرمون دون اكتراث بقصصه التى تأبأها العقول .

وكان الزائر الثالث يدعى جروزين ، وهو ابن جنرال محترم مثقف . وكان فى مثل سن أورلوف ، طويل الشعر ، قصير النظر ، يلبس نظارة ذهبية . إني لأذكر أصابعه الطويلة البيضاء التى تشبه أصابع عازف البيان . كان فى هيئته كلها شبه من الموسيقى ، من الفنان . إن عازف الكمان الأول فى الأوركسترا ، ل يبدو مثله تماماً . كان يسعل ويشكو الصداع ويبدو مدنفاً رقيقاً . ربما كانوا فى البيت يلبسونه ملابسه ، ويخلعونها عنه كأنه طفل . وكان قد أنهى دراسته فى كلية الحقوق ، واشتغل أول الأمر فى نظارة العدل ، ثم نقل إلى مجلس الشيوخ ، ثم نقل بالوساطة إلى وظيفة فى الخاصة الملكية ، ولكنه مالبث أن تخلى عنها . وكان حين عرفته يعمل فى قسم أورلوف ، رئيساً للكتاب عنده ، ولكنه قال إنه سينتقل إلى نظارة العدل مرة أخرى . لم يكن يبالى بواجباته ، وانتقاله

من وظيفة إلى أخرى . وكان إذا تحدث الناس أمامه يجد عن الدرجات والأوسمة والرواتب ، يبسم بسمة صافية ويردد قولة بروتكوف : « إنك لا تعرف الحقيقة إلا في خدمة الحكومة . » كانت له زوجة صغيرة مغضنة الوجه ، تغار عليه غيرة شديدة ، وخمسة أولاد يلوح عليهم البؤس . لم يكن مخلصاً لزوجته ، ولم يكن يحب أولاده إلا حين يراهم ، وكان على الجملة لا يأبه بأسرته ، بل يهزأ بها . كان يعيش هو وأسرته بالدين ، يقترضون حيثما استطاعوا وفي كل فرصة ، حتى من رؤسائه بالمصلحة ومن البوابين في البيوت . كانت طبيعته طبيعة رخوة وكان من الكسل بحيث لا يفكر في مصيره ، يمضي في طريقه لا يبالي أين يسير أو لم يسير . كان مسلوب الإرادة ، إذا أخذ إلى مباءة ذهب ، وإذا وضع أمامه النبيذ شرب — فاذا لم يوضع أمامه لم يشرب . إذا سبت الزوجات أمامه سب زوجته قائلاً إنها حطمت حياته — وحين تمتدح الزوجات ، يمتدح زوجته ويقول مخلصاً : « أنا مغرم بها . مسكينة . » لم يكن لديه سترة فراء ، بل كان دائماً يرتدى ملحفة تفوح منها رائحة المحضن . وحين كان عند العشاء يكور لقمة ، ويشرب قدراً كبيراً من النبيذ الأحمر ، وقد استغرقه الفكر — وهذا عجيب — كنت أحس ، وأكاد أومن ، أن فيه شيئاً ربما أحسه إحساساً غامضاً ، ولكن زحمة حياته اليومية وابتذالها لم تدع له وقتاً ليفهمه ويقدره . كان يجلس أحياناً إلى البيان ، ويعزف نغمة أو نغمتين .

ويأخذ يغنى بلطف :

ما الذى يضمُرُه لى الصباح المقبل ؟

ولكنه سرعان ماينهض وكأنه خائف ، ويتبعد عن البيان .

كان الزوار يأتون فى العادة حول العاشرة . وكانوا يلعبون الورق فى مكتب أورلوف وأقدم إليهم أنا وبوليا الشاى . لم أعرف المتعة الكاملة فى حياة الخادم ، إلا فى مثل تلك المناسبات وأؤكد لك أن وقوفى بالباب أربع ساعات أو خمساً ، ألاحظ ألا تفرغ إحدى الكئوس ، وأبدل منافض اللفائف ، وأجرى إلى المائدة ألتقط قطعة الطباشير أو ورقة من أوراق اللعب حين تسقط ، وأنتظر وأنا واقف منتبه دون أن أجرؤ على الكلام أو السعال ، أو الابتسام — أؤكد لك أن ذلك كله أصعب من أشق الأعمال البدنية . لقد وقفت فى البحر للمراقبة أربع ساعات فى ليالى الشتاء العاصفة ، ولكن ذلك فى ظنى أهون بكثير .

كانوا عادة يلعبون الورق إلى الثانية صباحاً ، وأحياناً إلى الثالثة ، ثم يذهبون إلى غرفة الطعام وهم يتمطون ، يتناولون العشاء ، أو كما كان يقول أورلوف ، ليأكلوا لقمة . كان الحديث يدور على العشاء ويبدأ عامة بأن يتحدث أورلوف بأعين باسمة عن بعض معارفه أو عن كتاب قرأه أخيراً ، أو عن التعيينات الجديدة أو خطط الحكومة ، فيسايره

كوكوشكين حريصاً على إرضائه ، وكان مايتلو ذلك ، يبدو لي حينذاك استعراضاً محققاً . فلم تكن سخرية أورلوف وأصدقائه تخضع لحد ، ولم تكن تبقى على أحد ، أو على شيء . إذا تحدثوا عن الدين سخروا ، وإذا تحدثوا عن الفلسفة وعن معنى الحياة وغايتها سخروا أيضاً ، وإذا بدأ أحدهم في الحديث عن الفلاحين ، بدأه ساخرأ .

هناك صنف من الناس في بطرسبرج ، اختصوا بالضحك من كل مظهر من مظاهر الحياة ، لا يستطيعون أن يمروا برجل تموت جوعاً ، أو بحادثة انتحار ، دون أن يفوهوا بشيء مبتذل . ولكن أورلوف لم يكن هو وأصدقائه يمزحون أو ينكتون ، بل كانوا يسخرون . اعتادوا أن ينكروا وجود الله ، وأن يقولوا إنه لا شيء بعد الموت ، وإن الخالدين ليس لهم وجود إلا في الأكاديمية الفرنسية . إن الخير الحق لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ، لأن وجوده متوقف على الكمال الانساني ، وهو سخافة منطقية . إن روسيا مثل فارس في الفقر والبلادة . إن الطبقة المثقفة يائسة ، والأغلبية المطلقة بينها — في رأي بيكارسكي — قاصرة لا تصلح لشيء . الشعب سكير كسلان ، سراق منحل . ليس عندنا علم ، وأدبنا عاثر ، وتجارتننا تقوم على الخديعة : « لا يبيع بغير غش . » كان كل شيء على هذا النحو ، وكل شيء يثير الضحك .

قريب انتهاء العشاء ، كان النبيذ يروق أمزجتهم ، فيميلون إلى حديث أكثر حيوية . كانوا يضحكون من أسرة جروزين ،

ومن فتوح كوكوشكين ، أو من بكارسكى الذى كان له فى دفتر حسابه ورقتان كتب فى رأس الأولى كلمة « الاحسان » وفى رأس الثانية « الضرورات الفسيولوجية . » كانوا يقولون : لا زوجة مخلصة . وإنه لا توجد الزوجة التى لا يستطيع الرجل الحاذق أن يعابثها قبل أن يترك الثوى ، وزوجها جالس فى مكتبه المجاور ، وإن الفتيات دون العشرين ، فاسدات يعرفن كل شئ . وكان أورلوف يحتفظ بخطاب لتلميذة فى الرابعة عشرة « اصطادات ضابطاً فى شارع نفسكى » وهى عائدة من المدرسة إلى البيت ، فأخذها إلى داره ، فيما يبدو ، ولم يدعها تذهب إلا بعد أن تقدم الليل ، وقد سارعت الفتاة تكتب عن هذا إلى تلميذة من صديقاتها ، تشرکہا فى فرحها . كانوا يرون أن ليس هناك — وإن لم يكن هناك قط — طهارة خلت ، وأن لا ضرورة لوجودها فيما يبدو ، فقد عاشت الانسانية إلى الآن بدونها . لا ريب أن الضرر الذى يجلبه مانسميه الرذيلة ، أمر مبالغ فيه . فالرذائل التى يعاقب عليها القانون ، لم تمنع ديوجين من أن يكون فيلسوفاً ومعلماً . وقد جمع قيصر وشيشرون بين المجانة والعظمة فى آن واحد . وتزوج كاتو بعد أن علت به السن بفتاة صغيرة ، ولكنه رغم ذلك كان يعتبر من كبار الزهاد ومن دعائم الفضيلة . كانت الجامعة تتفرق فى الثالثة أو الرابعة صباحاً . أو كانوا يذهبون خارج المدينة ، فى شارع الضباط ، إلى بيت امرأة تدعى فرفارا أوسيوفنا ، فى حين كنت أجنح إلى غرفتى وأظل فترة طويلة ، يصرفنى السعال والصداع عن النوم .

٤

بعد أن مضى على فى خدمة أورلوف ثلاثة أسابيع ، وكان الوقت صباح الأحد فيما أذكر ، دق شخص جرس الباب . لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وكان أورلوف مايزال نائماً . ذهبت أفتح الباب ، وتستطيع أن تتخيل دهشتى حين وجدت سيدة محجبة تقف على العتبة . سألت :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟

عرفت من الصوت ، زينايدا فيدوروفنا التى حملت إليها الرسائل فى شارع زنامنسكى . لست أذكر هل سمح الوقت باجابتها ، أو هل كنت من ضبط النفس بحيث أجيبها ، فقد أخذت عند رؤيتها . والواقع أنها لم تكن فى حاجة إلى جواب ، فقد مرقت بجانبى ، ودخلت وهى تملأ الردهة بشذا عطرها ، الذى لا زلت أذكره إلى اليوم ، ومضت ، حتى خفت وقع أقدامها . لم أسمع شيئاً حتى مر نصف ساعة على الأقل . لكن شخصاً دق الجرس مرة أخرى . وكان فى تلك المرة ، فتاة أنيقة الملبس . تبدو كأنها وصيفة فى أسرة غنية ، وقد صحبها بواب منزلنا . كان كلاهما يلهثان ، وهما يحملان حقيبتين وسلّة ملابس . قالت الفتاة :

— هذه لزينايدا فيدوروفنا .

وذهبت دون أن تزيد كلمة . كان ذلك كله شيئاً غامضاً ، وقد جعل بوليا وهى المعجبة بنزوات سادتها ، تبسم لنفسها بسمة

ماكراً ، ويبدو كأنها تود لو تقول : « إذن فهذه هي النهاية . » وكانت تمشي الوقت كله على أطراف أصابعها . وسبعنا أخيراً وقع أقدام ، وأتت زينايدا فيدوروفنا إلى الردهة مسرعة ، وحين رأتني عند باب غرفتي قالت :

— استيفان ، إذهب إلى جورجى إيفانتش بحاجاته .
حين ذهبت إلى أورلوف بشيابه وحذائه ، كان جالساً على سريره ، وأقدامه على السجادة المصنوعة من جلد الدب . كان يبدو عليه الحرج . لم يلحظنى ، ولم يكن يهتم رأى خادمه ولكنه كان ظاهر القلق والارتباك أمام نفسه ، أمام ضميره . ارتدى ملابسه واغتسل ، واستعمل أمشاطه وفراجينه فى صمت وعناية ، كأنما يفسح لنفسه وقتاً يتدبر فيه وضعه ويتأمله وكان المرء يستطيع ، حتى من خلفه ، أن يرى اضطرابه وسخطه على نفسه .

شربا القهوة معاً . صبت زينايدا فيدوروفنا القهوة لنفسها ولأورلوف ، ثم اعتمدت بمرفقيها على المائدة وضحكت . قالت :
— ما زلت أكذب عينى . إن المرء حين يطول أسد رحلاته ثم ينتهى أخيراً إلى فندق ، يصعب عليه أن يصدق أنه غير مضطر إلى استئصال الرحلة . جميل أن نتنفس فى حرية .

وتنفس الصعداء ، وضحكت مثل طفل يبالغ فى عبثه .
قال أورلوف وهو يومئ برأسه نحو القهوة :
— إسمح لى . إن القراءة أثناء الإفطار عادة لا أستطيع

التخلي عنها . ولكنى أستطيع أن أعمل شيئين فى آن - أقرأ وأسمع .

- إقرأ كما يحلو لك . . . ابق على عاداتك وحزيتك . ولكن لم يبدو عليك هذا الوجوم ؟ أنت كذلك كل صباح أم فى هذا الصباح وحده ؟ ألسنت مسروراً ؟ - أجل إني مسرور . ولكن يجب أن أقر بأنى مأخوذ قليلا .

- لم ؟ كان أمامك وقت طويل تعد فيه نفسك لنزولى عليك . لقد كنت أهدد بالحجى كل يوم .

- أجل . ولكنى لم أتوقع أن تنفذى تهديدك اليوم . - أنا نفسى لم أتوقعه . ولكن هذا أفضل . إنه أفضل يا عزيزى . الخير فى خلع السن المألومة والخلاص منها . - أجل . بالطبع .

قالت وهى تغمض عينيها :

- أوه يا عزيزى . العبرة بالخواتيم . ولكن كم مررت من عذاب قبل هذه الخاتمة السعيدة ! إن ضحكى لا يعنى شيئاً أنا فرحة ، أنا سعيدة . ولكنى أميل إلى البكاء منى إلى الضحك .

ومضت تقول بالفرنسية :

- كان على أمسى أن أخوض معركة منظمة ، يعلم الله كم كنت شقية . ولكنى أضحك لأنى لا أستطيع أن أصدق . أنا مازلت إخال جلوسى معك هنا نشرب لقهوة ، حلماً لا حقيقة .

ثم وصفت ، وهى ماتزال تتكلم بالفرنسية ، كيف وقعت بينها وبين زوجها القطيعة فى اليوم السابق ، وكانت عيناها تمتلئان بالدموع مرة وبالضحك مرة وهى ترنو إلى أورلوف فى نشوة . حدثته بأن زوجها كان يرتاب فيها من عهد بعيد ، ولكنه كان يتجنب كل جدال فى هذا الشأن ، وقد وقعت بينهما منازعات كثيرة . وكان فى العادة يركن إلى الصمت فى أشد اللحظات حرارة ، وينطلق إلى مكتبه خشية أن يدفعه الحنق إلى الافصاح عن شكوكه ، أو أن تبدأ هى فتصرح . وكانت هى تحس فى نفسها الاثم ، والتفاهة ، والعجز عن أن تقدم على خطوة جريئة جدية ، وقد زاد ذلك من كراهيتها لنفسها ولزوجها على الأيام ، وعانت عذاب الجحيم . ولكنه حين صاح فى اليوم السابق بصوت باك — وكانا — يتساجران — « يا إلهى متى ينتهى هذا ؟ » وذهب إلى مكتبه ، جرت خلفه كما تركض القطة وراء الفأر ، وصاحت وهى تمنعه من أن يغلق الباب ، قائلة إنها تكرهه من كل نفسها . ثم تركها تدخل غرفة المكتب فأخبرته بكل شئ ، واعترفت بأنها تحب رجلا آخر ، وأن ذلك الآخر كان زوجها الحقيقى الشرعى ، وأنها ترى أن واجبها الحق هو أن تذهب إليه ذلك اليوم مهما يحدث ، ولو ضربت بالرصاص .

قاطعها أورلوف وعيناه ماتزالان على الصحيفة ، قائلا :
— إن فىك شيئا من الرومانتيكية .

ضحكت ، ومضت فى حديثها دون أن تمس قهوتها . توهج

خداها ، فشعرت لذلك بشئ من الارتباك ، ونظرت إلى وإلى بوليا في اضطراب . وقد علمت مما قالتها بعد ذلك أن زوجها أجابها بالتهديد والتوبيخ ثم بالبكاء ، وأن حقيقة الأمر أنها هي لا زوجها كانت البادئة بالهجوم .

قالت لأورلوف :

— أجل يا عزيزى ، كان كل شئ يسير فى طريقه مادمت منفعة ، ولكن حين هبط الليل ، خانتنى قواى . أنت لاتؤسن بالله يا جورج ، ولكنى أومن به قليلا ، وأخشى الحساب . إن الله يوصينا بالصبر وكرم النفس والايثار ، ولكن هأنادى أبى أن أكون صابرة ، وأريد أن أبدل حياتى وفق هواى . أضواب هذا ؟ ماذا لو كان خطأ فى نظر الرب ؟ جاءنى زوجى فى الساعة الثانية صباحاً وقال : « إياك أن تذهبي ، فسأعيدك بالشرطة ، وأحدث فضيحة . » ثم رأيته بعد قليل واقفاً ببابى كالشبح : « إرحمىنى ! إن هربك قد يضرنى فى عملى . » تأثرت بفضاظة تلك الكلمات ، وشعرت بالجمود فى جسمى كله . شعرت أن الحساب قد بدأ ، وأخذت أبكى وأرتعد من الخوف . شعرت كأن السقف قد سقط فوقى ، وأنى أفاد إلى المخفر — وأنتك ستبدى لى الفتور — شعرت فى الحق بأشياء كثيرة ، فكرت فى أن أدخل ديراً ، أو أصبح ممرضة ، ولا أفكر فى السعادة أبداً . ثم ذكرت أنك تحببى ، وأنى لا أملك الحق فى التخلص من نفسى دون أن أعلم ، وتعقد كل شئ فى ذهنى — كنت يائسة لا أدرى ما أعمل أو أفكر . ولكن الشمس أشرقت فانبعشت فى

السعادة . ولما انجلي الصباح أسرع إليك . آه ، كم لقيت
يا عزيزى ! أنا لم أنم منذ ليلتين !

كانت متعبة منفعلة ، يرين عليها النوم ، وتريد فى الوقت
عينه أن تتكلم فلا تنتهى ؛ أن تضحك وتبكي ، وأن تذهب إلى
مطعم تتناول الغداء ، حتى تحس بحريتها . قالت وهى تهرول
بين الغرف حين انتهيا من الافطار :

— إن مسكنك مريح ، ولكن أخشى ألا يسعنا كلينا .
أية غرفة ستجعلها لى ؟ أنا أحب هذه ، لأنها تجاور مكتبك .
فى الساعة الأولى بدلت ملابسها فى الغرفة المجاورة للمكتب
والتي أسمتها منذ ذلك الحين غرفتها ، وذهبت مع أورلوف للغداء
وقد تعشيا كذلك فى مطعم ، وقضيا الفترة الطويلة بين الغداء
والعشاء فى شراء بعض الحاجات . وبقيت حتى وقت متأخر
من المساء أستقبل الساعة وصبيان الحوانيت . وقد اشترى بين
ما اشترياه : مرآة طويلة ، ومائدة زينة وسريراً وأدوات شاي
فخمة لم تكن فى حاجة إليها . واشترى مجموعة كاملة من القدور
النحاسية صففناها على رف فى مطبخنا البارد الخالى . لمعت
عينا بوليا حين فككنا رباط أدوات الشاي ، ونظرت إلى مرتين
أو ثلاثاً نظرة حقد وخوف أن أسبقها إلى سرقة واحد من تلك
الأكواب البديعة . وأتتنا أيضاً منضدة كتابة نسائية ثمينة
ضخمة . كان واضحاً أن زينايدا فيودورفنا تنوى أن تقيم معنا
إلى الأبد ، وأن تجعل المسكن بيتها .

وعادت مع أورلوف بين الساعة التاسعة والعاشرة . وكانت

زينaida فيدوروفنا نشوى بحياتها الجديدة ، إذ كان يفعمها الشعور بأنها أتت أمراً خارقاً للعادة ، وكانت محبة وامقة ، تحسب أنها موموقة ، وكانت مجعدة تتشوف إلى نوم عميق لذيد عصرت يديها وهى تفيض سروراً ، واستحسنت كل شئ ، وأقسمت أنها ستحب أورلوف أبداً . وجعلها هذا القسم ، وثقتها الغريرة — بل الصبيانية — بأنها محبوبة كذلك حباً عميقاً ، وأنها ستظل محبوبة أبداً — جعلها ذلك كله أصغر مما هى بخمس سنين على الأقل . وكانت تلغو لغواً ظريفاً وتضحك من نفسها .

قالت وهى تتكلف أن تقول شيئاً جدياً مفيداً :
— لا نعمة أعظم من الحرية ! فكر فى الأمر تعجب لسخافته : إننا لا نقيم وزناً لآرائنا نحن ولو كانت آراء سديدة ، ولكننا نرتعد لآراء شتى الأغبياء من الناس . لقد ظلت إلى آخر لحظة خائفة مما قد يقوله الناس ، ولكننى ما إن جريت مع فطرتى وعقدت العزم على أن أسلك السبيل الذى أَرْضاه ، حتى تفحت عينائى ، وتغلبت على مخاوفى ، وإنى الآن سعيدة ، وإنى لأتمنى لكل أحد مثل هذه السعادة !

ولكن أفكارها سرعان ما انطلقت فى وجهة أخرى ، وأخذت تتحدث عن مسكن جديد ، وأوارق للجدران ، وجياد ورحلة إلى سويسرا وإيطاليا . وكان أورلوف قد مل المطامع والخوانيت وما زال يعروه ذلك القلق الذى لاحظته عليه فى الصباح ، فكان يبتسم ، ولعل الأرجح أنه كان يبتسم تأدباً لا سروراً .

فكانت إذا تكلمت جادة عن شيء ، وانفجها ساخراً يقول :
— إى نعم .

قالت لى :

— عليك بالبحث عن طاهية ماهرة .

فقال أورلوف وهو ينظر إلى ببرود :

— لا داعى للعجلة فى أمر المطبخ ، فعلينا أولاً أن ننقل

إلى مسكن جديد .

ولم نكن نطهو فى المنزل قط ولا نقتنى جياداً ، فقد كان يقول : « إنه يجب ألا يعيش فى فوضى » ، ولم يكن يحتمل بقائى أنا وبوليا فى المسكن إلا إضطراراً . كان ذوقه ينبو عن « الوكر المنزلى » كما يسمونه ، وكان يجد فى متعه اليومية وهمومه الصغيرة غثاء وسوقية . بشع أن تكون من الطبقة الوسطى ، وبشع أيضاً أن يكون لك صبي ، أو صبيان تتحدث عنهم . وبدأت أتشوق إلى رؤية هذين المخلوقين ، كيف يتعاشران فى مسكن واحد ، وهى الألوف عاشقة البيت ، ذات الأوانى النحاسية التى تحلم بطاهية ماهرة وجياد ؛ وهو الذى يستهويه أن يقول لأصدقائه إن مسكن الرجل المعتدل المنظم ينبغي أن يكون كالبارجة ، لا يحتوى على شيء زائد عن الحاجة : لا نساء ، ولا أطفال ، ولا سجاجيد ؛ ولا أوانى للطبخ .



إذن فلاحظك بما كان في الخميس التالى . فى ذلك اليوم
تعشت زينايدا فيودورفنا فى مطعم كوتنتنت أو دونون . وعاد
أورلوف وحيداً ، وذهبت زينايدا فيودورفنا كما علمت فيما
بعد إلى عدوة بطرسبرج ، تقضى مع مربيتها العجوز الوقت
الذى يمكثه الزوار عندنا . لم يعن أورلوف بأن يقدمها إلى
أصدقائه . أدركت ذلك عند الافطار حين بدأ يؤكد لها
ضرورة العدول عن سهرات الخميس حرصاً على راحتها .
وصل الزوار كعادتهم فى وقت واحد تقريباً . سألتنى
كوكوشكين هامساً :

— هل سيدتك فى المنزل أيضاً ؟

أجبت :

— لا يا سيدى .

فدخل وهو ينظر بعينه نظرة زائغة مأكرة ، ويضحك
ملغزاً ويفرك يديه اللتين أثلجهما الصقيع . قال لأورلوف ،
وجسمه كله يهتز بضحك متملق دنى :

— لى الشرف أن أهئك . أرجو أن تكون لكما ذرية
كثيرة كأرز لبنان .

دخل الزوار إلى حجرة النوم ، وطربوا طرباً شديداً لكوئى
اسرأة ، وللسجادة التى وضعت بين السريرين ، ولستره رمادية
كانت معلقة على أرجل السرير . شاقهم أن يقع فى فخاخ النساء

بمثل تلك الطريقة السهلة العادية ، ذلك الرجل العنيد الذى كان يحتقر صغائر الحب المتبدلة .

كان كوكوشكين يردد :

— إن ذلك الذى رفع أصبع الاحتقار ، أخذ يركع الآن فى خضوع .

ويمكن أن أقول عابراً إن كوكوشكين اعتاد عادة سيئة هى ترصيع كلامه بشواهد من نصوص الكنيسة الصقلبية . قال وقد ذهبوا من غرفة النوم إلى الغرفة المجاورة للمكتب : — هنا تحلم جرتشين بحبيها فاوست .

ومضى يضحك ضحكا صاخباً كأنه قال شيئاً رائعاً . لحظت جروزين . خلت نفسه الصافية لا تطيق هذا الضحك ، ولكنى كنت مخطئاً ، فقد كان السرور يشع من وجهه النحيل الساذج . وحين جلسوا يلعبون الورق قال وهو يلثغ ، ويكاد يخنثق من شدة الضحك ، إن كل ما يحتاجه « جورجى العزيز » ليلم سعادته المنزلية هو غليون من خشب التفاح وقيثارة . وكان بكارسكى يضحك فى رزانة وإن رأى المرء من تعبيره الجاد أن حب أورلوف الجديد لم يكن يروقه ، ولم يكن يعلم بالدقة ماحدث . سأل مرتبكا بعد أن لعبوا ثلاث دورات :

— لكن ماذا صنع الزوج ؟

أجاب أورلوف :

— لا أدرى .

خلل بكارسكى لحيته الكبيرة بأصابعه ، وغرق فى التفكير

ولم يعاود الكلام حتى حان موعد العشاء . قال حين جلسوا للعشاء وهو يزن كلماته ويمط كل كلمة :

— أرجو أن تغفرا لى قولى إنى لا أفهمكما . أنا أفهم أن تتحابا ، وتخرجا على الوصية السابعة كما تشاءان . أجل هذا مفهوم . ولكن لم تطلعان الزوج على أسراركما ؟ أكانت هناك حاجة ما إلى ذلك ؟

— ولكن هل يغير هذا من الأمر شيئاً ؟
غمغم بكارسكى :

— هم . إذن دعنى أقل لك هذا يا صديقى .
ومضى يقول وقد ظهر عليه أنه يجهد فكره :

— لو أنى تزوجت مرة أخرى ، وبدا لك أن تغرى امرأتى ، فأرجو أن تفعل ذلك دون أن ألحظه . إن خداع الرجل أشرف بكثير من أن تحطم حياة أسرته وتسبب إلى سمعته . أنا أفهم أنكما تتخيلان فى إقامتكما معاً إقامة سافرة ، شيئاً شريفاً فذاً ، ولكنى لا أقركما على هذه الفكرة . . . ماذا أسميها ؟ . . .
على هذه الفكرة الرومانتيكية ؟

لم يجب أورلوف . كان ضيق الصدر عازفاً عن الكلام .
دق بكارسكى على المائدة بأصابعه وهو ما يزال فى حيرته وفكره قليلاً ثم قال :

— أنا لا أفهمكما على أية حال . فأنت لست طالباً ؛
وليست هى خياطة . فكلاكما ميسور الحال . أظن أنك كنت تستطيع إعداد مسكن مستقل لها .

— لا . لم أكن أستطيع . اقرأ ترجنيف .

— لم أقرؤه ؟ لقد فرغت من قراءته .

قال أورلوف وقد خزر عينيه ساخراً :

— إن ترجنيف يعلمنا في قصصه أن كل فتاة سامية شريفة

ينبغي أن تتبع الرجل الذي تحبه إلى أقاصى الأرض ، وأن

تخدم فكرته . إن أقاصى الأرض تجوّز شعري ، ويمكن أن تحد

الأرض وأقاصيها بمسكن الرجل الذي تحب . . . وكذلك يكون

رفضك الإقامة في مسكن واحد مع المرأة التي تحبها ، حرماناً لها من

رسالتها السامية ، وانصرافاً عن مشاركتها في مثلها . أجل

يا صديقي العزيز ؛ هذا ما كتبه ترجنيف ، وعلى أن أشتى به .

قال جروزين بلطف وهو يهز كتفيه :

— أنا لا أفهم دخل ترجنيف في هذا . أتذكر ، يا جورج ،

كيف كان في « المقابلات الثلاث » يمشى في المساء بمكان ما

من إيطاليا . ويسمع بغتة : « تعال وأنت تفكر في سرّاً » .

وتتم جروزين :

— بديع .

قال بكارسكى :

— ولكنها لم تفرض عليك الإقامة معك . لقد كان ذلك

ما تريده .

— وماذا بعد ؟ أنا لم أرد ذلك ، بل لم يخطر ببالى أنه

قد يحدث يوماً . لقد كنت أحسبها تهزل حين كانت تقول

إنها ستأتى لتعيش معى .

ضحك الجميع .

قال أورلوف في لهجة الرجل الذى يضطر إلى تبرير عمله :
 — ما كنت لأرغب فى مثل هذا . أنا لست بطلا من أبطال ترجنيف ، ولو أنى أردت أن أحرر بلغاريا لما احتجت إلى صحبة امرأة . أنا أنظر إلى الحب على أنه ، قبل كل شئ ، ضرورة جسمية تنحط بروحى وتعاديه ، فأما أن تشبع بحكمة أو تهمل إهمالا تاماً ، وإلا أدخلت فى حياة المرء عناصر قدرة مثلها . أنا أحاول أن أجعلها جميلة ، وأحيطها بحشد من الأوهام حتى تكون لذة لا عذاباً . أنا لا أذهب لأرى امرأة إلا إذا علمت سلفاً أنها جميلة ساحرة ، وأنا لا أذهب إلا عن رغبة . وبهذه الطريقة وحدها ننجح فى خداع بعضنا بعضاً ؛ ونخال أننا نحب وأننا سعداء . ولكن هل يمكن أن أهوى القدور النحاسية أو الشعر الأشعث ، أو أرغب فى أن أرى ضيق الصدر أو غير مغتسل ؟ إن زينايدا فيودوروفنا تريد لسذاجة قلبها ، أن أحب ما كنت أتجنبه طول حياتى ، إنها تريد أن يكون لمسكنى ريح الطهى والمسح . تريد ضجة الانتقال إلى مسكن آخر ، والركوب فى عربة خاصة . تريد أن تعد قطع ملابسى وأن تعنى بصحتى . تريد أن تتدخل فى حياتى الخاصة كل لحظة وأن تراقب كل خطوة لى . وهى فى الوقت عينه تؤكد لى مخلصاً أن عاداتى وحريتى ستظل كما هى . وهى معتقدة أننا سنرحل لنقضى شهر العسل ، مثل زوجين شابين — أى أنها تريد أن تكون معى طول الوقت فى القطارات والفنادق

في حين أحب أنا القراءة أثناء الرحلة ، ولا أحتمل الحديث في القطارات .

قال بكارسكى :

- ينبغي أن تجعل لها نصيباً من حديثك أيضاً .
 - ماذا ؟ أتظنها تفهمنى ؟ إن تفكيرنا مختلف جداً .
- إنها ترى أن تركها لأبيها أو أمها أو زوجها من أجل الرجل الذى تحبه هو غاية الفضيلة المدنية ، بينما أنظر أنا إلى ذلك على أنه عبث أطفال . إن الوقوع فى أسر الحب والهرب مع رجل هو عندها بدء حياة جديدة ، بينما هو لا يعنى شيئاً عندي .
- إن الحب والرجل هما أهم ما يعنينا فى حياتها . ولعل ذلك صادر عن فلسفة عقلها الباطن . حاول أن تقنعها بأن الحب ليس إلا حاجة جسمية أولية كالحاجة إلى الغذاء أو الملابس .
- أن نهاية العالم لا تقع إذا كانت حالة الأزواج والزوجات لا ترضى .
- أن الرجل قد يكون ماجناً خليعاً وهو مع ذلك رجل شريف عبقرى . وأن المرء من جهة أخرى قد يعف عن لذات الحب ويكون فى الوقت نفسه حيواناً بليداً شريراً ! أن الرجل المدنى اليوم حتى بين الطبقات الدنيا — كالعمال الفرنسيين مثلاً —
- ينفق عشرة مليات على غدائه ، وخمسة على نبيذه ، وخمسة أو عشرة على المرأة ، ثم يكرس ذهنه وأعصابه لعمله . لكن زينايدا فيودوروفنا لا تجعل للحب هذا القدر من المليات بل تهبه نفسها كلها . لوحدثها ، لأجابتنى صائحة معلنة بكل ما تستطيع من حرارة ، أنى حطمتها ، ولم يبق لها شئ تعيش من أجله .

قال بكارسكى :

— لا تحدثها بشئ . وليس عليك إلا أن تستأجر لها مسكناً منعزلاً .

— هذا شئ يسهل قوله . . .

وران الصمت لحظة . قال كوكوشكين :

— ولكنها فاتنة . رائعة . إن مشيقاتها من النساء يحسبن أن سيحببن إلى الأبد ، ويسلمن أنفسهن موهلات .

قال أورلوف :

— ولكن المرء ينبغي أن يكون له رأس بين كتفيه . يجب على المرء أن يتعقل . إن التجربة التى يكسبها المرء من الحياة اليومية ، ويستخلصها من القصص والمسرحيات تؤيد كلها أن العشق والمعاشرة بين قوم مهذين لا تستمر بحال سوى عامين أو ثلاثة أعوام على الأكثر ، مهما يكن الحب عظيماً فى البداية . ذلك ما يجب أن تعلمه . وكذلك ففكرة الانتقال ، والقصور النحاسية ، والأمل فى حب ووفاق أبديين ، ليست إلا رغبة تضلل بها نفسها وتضلانى . هى جميلة فاتنة . من ينكر ذلك ؟ ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، وفرضت على أن أعد من المشكلات ما كنت أعتبره حتى الآن هراء تافهاً . أنا أخدم صنما ما نظرت إليه قط على أنه إله . هى رائعة ، فاتنة ، ولكنى ، لأمر ما ، أحس وأنا عائد إلى منزلى بالضيق ، كأنى أتوقع أن ألقى فى المنزل شيئاً مكدرًا ، كأن أجد العمال يكسرون المدفأة ويسدون المكان باكوام من

الآجر . الواقع أنى لم أعد أمنح الحب ملياً بل قطعة من هدوء ذهنى وأعصابى . هذا أمر سيء . . .

همس كوكوشكين لنفسه : « وهى لا تسمع هذا الوغد ! »
وقال بحركة مسرحية :

— سيدى العزيز ! سأعفيك من واجبك الثقيل فى حب ذلك المخلوق المعبود ! سأنتزع زينايدا فيودوروفنا منك !
قال أورلوف غير آبه :

— تستطيع ذلك . . .

ظل كوكوشكين نصف دقيقة يضحك ضحكة حادة صغيرة ويختلج جسمه كله ثم قال :

— احترس . أنا جاد . لا تمثل من بعد دور عطيل !
بدأ الجميع يتحدثون بنشاط كوكوشكين الذى لا يفتر فى أمور الحب : كيف تعجز النساء عن مقاومته ، وأى خطر هو على الأزواج ، وكيف أن الشيطان سيشويه فى العالم الآخر بعهره فى هذا العالم . خزر كوكوشكين عينيه وبقي صامتاً ، وحين كانت تذكر أسماء من يعرفون من السيدات ، كان يرفع خنصره كأنما يقول إنه لا ينبغى أن يفضحوا أسرار غيرهم .
نظر أورلوف بغتة إلى ساعته .

أدرك أصدقاؤه ما يعنى وبدأوا ينصرفون . وأذكر أن جروزين — وكان نشوان — تلكأ فى الانصراف تلكؤاً مملاً . ارتدى سترته التى كانت تشبه فى تفصيلها سترة الأطفال فى الأسر الفقيرة ، ورفع الياقة ، وبدأ يقص قصة شديدة

الالتواء ، ثم حين رأى أن لا أحد يصنئ إليه ، ألقى على إحدى كتفيه الملحفة التي كانت تفوح منها رائحة المحضن ، وسألني بوجه متوسل متأثم أن أجد له قبعته .

قال برقة :

— يا ملاكى جورج . افعل كما أسألك يا ولدى العزيز .

تعال معنا خارج المدينة !

— تستطيعون أن تذهبوا ولكن لا أستطيع . أنا الآن

كالمتروج .

— إنها فتاة لطيفة ، فلن تغضب . تعال يا رئيسى

العزيز ! الجو رائع . هناك الجليد والصقيع . . . أنت ،

بشرى ، محتاج إلى الاسترواح . أنت منحرف المزاج . ولا أدري

ما بك . . .

تمطى أورلوف وتشاءب ونظر إلى بكارسكى وقال متردداً :

— أذهاب أنت ؟

— لا أدري . ربما .

قال أورلوف بعد شئ من التردد :

— أسكر ؟ حسناً . أنا آت . انتظروا لحظة ، سأتى بنقود .

ودخل حجرة المكتب ، ودلف جروزين إليها أيضاً ، وهو

يجر وراءه ملحفته . وبعد لحظة رجعا إلى الردهة ، وكان جروزين

يقتبض فى يده ورقة من ذوات عشرة الروبلات ، وهو سكران

شديد المرح . قال :

— سنتفق غداً . . . إنها حنون . . . لن تعترض . . .

هى عراية ليزوتشكا . أنا أحبها ، المسكينة ، آه ، يا صديقى العزيز !

وضحك فى مرح شديد . وقال وهو يدفع جبينه فى ظهر بكارسكى :

— آه ، بكارسكى يا روحى العزيز ! يا لله ! جاف كالبسكوتة ولكنى أقسم أنه شغوف بالنساء . . .

قال أورلوف وهو يرتدى سترة الفراء :

— السمينات منهن . لنسرع وإلا لقيتنا عند عتبة الباب . غمغم جروزين :

— تعال وأنت تفكر فى سرّاً .

وأخيراً ذهبوا . ولم يبق أورلوف فى المنزل بل عاد فى اليوم التالى عند الغداء .

٦

فقدت زينايدا فيودوروفنا ساعتها الذهبية ، وهى هدية من أبيها . عجبت لضياح الساعة وانزعجت . وقضت نصف نهار تجوس خلال الغرف ، تنظر يائسة على الموائد جميعها ، والنوافذ كلها ، ولكن الساعة اختفت اختفاء تاماً .

ثم لم يمتض سوى ثلاثة أيام وتركزت زينايدا فيودوروفنا كيس نقودها فى الردهة عند دخولها . وكان من حسن حظى أن بوليا — لا أنا — هى التى عاونتها على خلع معطفها . فلما

افتقد الكيس لم يوجد في الردهة . قالت زينaida فيودوروفنا في حيرة :

— غريب . أنا أذكر بوضوح أني أخرجته من جيبي لأنقذ سائق العربة أجره . . . ثم وضعته هنا إلى جانب المرأة . هذا غريب جداً !

لم أسرق الكيس ، ولكني شعرت كأنى سرقته وقبض على وأنا أسرقه . فجالت الدموع في عيني . وحين جلسا للعشاء قالت زينaida فيودوروفنا لأورلوف بالفرنسية :

— يبدو أن البيت مسكون بالأرواح . لقد فقدت كيس نقودى في الردهة اليوم . ولكن الأمر ليس مجرد حيلة بريئة من الأرواح . فقد أخذت منه قطعة ذهبية وعشرين روبلا ورقاً .

قال أورلوف :

— أنت دائماً الفقد للأشياء . ساعتك ، ثم نقودك . لم لا يحدث لى شىء من ذلك ؟

بعد لحظة كانت زينaida فيودوروفنا قد نسيت حيلة الأشباح ، وأخذت تروى ضاحكة كيف طلبت في الأسبوع السابق بعض ورق الكتابة ونسيت أن تعطى عنوانها الجديد ، فأرسل الدكان الورق إلى بيتها القديم عند زوجها ، فكان عليه أن يدفع اثني عشر روبلا ثمناً للورق . وبغته التفتت إلى بوليا وثبتت فيها نظرها ؛ احمرت وهي تفعل ذلك وارتبكت فبدأت تتحدث عن شىء آخر .

وحين أخذت القهوة إلى المكتب ، كان أورلوف واقفاً وظهره إلى النار وكانت هي جالسة تجاهه في كرسي كبير . كانت تقول بالفرنسية :

— أنا لست منحرفة المزاج ألبتة ، ولكنى كنت أجمع بين الأشياء ، وأنا أراها الآن بوضوح . أنا أستطيع أن أخبرك في أى يوم وفي أية ساعة سرقت ساعتى . وكيس النقود لا يمكن أن يتطرق الشك إلى ذلك .

وضحكت وهي تأخذ القهوة منى وقالت :

— أوه . الآن أستطيع أن أفهم لم أفقد أبداً مناديلى وقفازاتى . مهما تقل فساطرد هذه الحداة غداً ، وأرسل ستيقان فى طلب خادى صوفيا . إنها لا تسرق وليس لها مثل هذا ... المظهر المنفر .

— أنت منحرفة المزاج ، وسيتغير الأمر غداً وتدركين أنه لا يصح أن تطردى الناس لا لشيء إلا لأنك تشكين فيهم . قالت زينايدا فيودورفنا :

— ليس الأمر شكا بل يقيناً . أنا لم أقل شيئاً حين كنت أشك فى خادمك البائس الضاوى . لا يحمل بك ألا تصدقنى يا جورج .

قال أورلوف وقد استدار ورمى عقب لفافته فى النار :
— إذا كانت فكرتك عن شىء تخالف فكرتى ؛ فليس معنى ذلك أنى لا أصدقك . قد تكونين على حق ، ولكن لا داعى للانزعاج على أية حال . الحق أنى لم أتوقع قط أن

يسبب لك مسكني المتواضع ذلك العناء والاضطراب . لقد فقدت قطعة ذهبية — لا بأس . خذى منى مائة قطعة ، ولكن الأسر المرهق المتعب الذى لا يروفتى هو تغيير عاداتى ، واختيار خادم جديدة ، والانتظار حتى تألف المكان . لا شك أن خادمنا بدينة ، ولعل بها ضعفا إزاء القفازات والمناديل ، ولكنها حسنة المسلك ، مدربة ، لا تصرخ إذا قرصها كوكوشكين .

— تعنى أنك لا تستطيع فراقها ؟ . . . لم لا تقول ذلك ؟
— أنت غيرى ؟

قالت زينايدا فيودورفنا فى إصرار :

— أجل .

— أشكرك .

أعادت وقد لمعت الدموع فى عينيها :

— أجل . أنا غيرى . بل الأمر شر من ذلك . لا أجد كلمة تدل عليه .

وضغطت يديها على صدغيها ومنضت تقول مندفعة :

— أنتم أيها الرجال تثيرون الاشمتزاز ! هذا فظيع .

— لا أرى فى الأمر فظاعة .

— أنا لم أر شيئاً . أنا لا أدرى . ولكنهم يقولون إنكم

— أيها الرجال — تبدءون بالخدومات وأنتم غلمان ، وتألفون

ذلك فلا تشمتزون منه . لا أدرى . لا أدرى . ولكنى قرأت

فعلا . . .

ثم قالت وقد ذهبت إلى أورلوف وانتقلت إلى نيرة مدلة متوسلة :

— جورج . لا شك أنك على حق . أنا منحرفة المزاج اليوم . ولكن يجب أن تفهم أن الأمر ليس بيدي . إنها تثير اشمئزاي وأنا أخشاها . يشقني أن أراها .

قال أورلوف وهو يهز كتفيه حائراً وابتعد عن النار :

— لا شك أنك تستطيعين السمو على مثل هذه التفاهات . الأمر يسير جداً : أسقطيها من نظرك ، فلا تعود تغيثك ولا تحتاجين أن تخلقى من الأمر التافه مأساة .

خرجت من حجرة المكنب . ولست أدري أى جواب تلقاه أورلوف . ومهما يكن ذلك الجواب فقد بقيت بوليا ، ولم تعد زينايدا فيودورفنا بعد ذلك تطلب منها شيئاً ، وكان واضحاً أنها تحاول أن تستغنى عن خدماتها . كانت زينايدا ترتعد إذا ناولتها بوليا شيئاً ، بل إذا مرت بها بوسوسة عقدها وحفيف أذيالها .

أعتقد أن أورلوف ما كان ليتردد في طرد بوليا ، أو ليسأل إيضاحاً ، لو أن جروزين أو بكارسكى طلب إليه ذلك . كان سهل الاقتناع كغيره من الناس الذين لا يأبهون لشيء . ولكنه في علاقاته مع زينايدا فيودورفنا ، بل في التافه منها ، كان يبدى عناداً خالياً من الحكمة أحياناً . كنت أعلم سلفاً أن زينايدا فيودورفنا لو رغبت في شيء لانصرف عنه أورلوف . حين كانت تعود بعد التسوق فتسرع لترى أورلوف بفخر

شيئاً جديداً اشتريته ، كان ينظر إليه ويقول ببرود إن كثرة النوافل في المنزل تفسد جوه . وكان يحدث أحياناً أن يرتدى ثيابه للخروج إلى مكان ما ، ويودع زينايدا فيودورفنا ، ثم يعدل عن رأيه بغتة ، ويبقى في المنزل للعناد وحده . كنت أظن أنه ما كان يبقى في المنزل حينئذ إلا ليحس بأنه قد أسى إليه . كانت زينايدا فيودورفنا تقول وهي تظهر الضجر وإن كانت في الوقت نفسه تتألق بشراً :

— لم تبقى ؟ لم ؟ أنت لم تعتد أن تقضى أمسياتك في البيت : وأنا لا أريدك أن تغير عاداتك من أجلى . اخرج كما اعتدت إذا شئت ألا تشعرني بأني أذنبت في حقك .
فيقول أورلوف :

— لا أحد يلومك .

ثم يتمطى على كرسیه الوثير في المكتب وكأنه ضحية ، ويأخذ كتاباً وقد ظلل عينيه بيده . ولكن الكتاب لا يلبث أن يسقط من يده ، ويتقلب في الكرسي متثاقلاً ، ويعود فيظلل عينيه بيده كأنه يتقى الشمس . إنه الآن يحس الضيق . لأنه لم يخرج .

تقول زينايدا فيودورفنا وقد جاءت في تردد إلى المكتب :
— أستطيع أن أدخل ؟ هل تقرأ ؟ لقد شعرت بالضيق وحدي ، وجئت ريثما . . . أنظر إليك نظرة . . .

أذكر أنها في إحدى الأماسي دخلت كذلك في تردد ولغير مناسبة وسقطت على السجادة عند قدمي أورلوف ، وكان المرء

يستطيع أن يرى من حركاتها الرقيقة الخجلة أنها لم تكن تفهم حالته وأنها كانت خائفة . قالت متلطفة واضحة الرغبة في تملكه :
— أنت دائماً تقرأ ، أنعلم يا جورج أحد أسرار نجاحك ؟
إنه ذكاؤك وسعة اطلاعك . أى كتاب معك !

أجابها أورلوف ، وتبع ذلك صمت بقى دقائق خلتها طويلة جداً . كنت واقفاً فى الثوى حيث أستطيع أن أرقبهما ، وكنت أخشى أن أسعل . قالت زينايدا فيودورفنا :

— هناك أمر أردت أن أخبرك به — وضحكت — هل أخبرك؟ أغلب الظن أنك ستضحك وتقول إني أتملى نفسى، أنت تعلم أنى أريد ، أريد بلهفة أن أعتقد أنك باق الليلة فى البيت لأجلى . . . حتى نقضى المساء معاً . نعم ؟ أيمكن أن أضن ذلك ؟
قال وهو يظلل عينيه :

— افعلنى . إن الانسان السعيد حقاً هو ذلك الذى لا يفكر فيما هو كائن وحسب بل فيما لا يكون أيضاً .

— تلك عبارة طويلة لا أحسن فهمها . أنت تقصد أن السعداء من الناس يعيشون فى الخيال . أجل هذا حق . أنا أحب أن أجلس فى مكتبك فى المساء وأدع أفكارى تحملنى بعيداً . . . بعيداً . . . لذيذ أن يحلم المرء أحياناً . فلنتحدث بأحلامنا يا جورج .

— أنا لم أكن قط فى مدرسة داخلية للبنات ، فلم أتعلم هذا الفن .

قالت زينايدا فيودورفنا آخذة بيد أورلوف :

— أأنت منحرف المزاج ؟ أخبرنى عن السبب . إننى أخاف حين ينحرف مزاجك ، فلا أدرى أبك صداع أم أنت غاضب على . . .

وران الصمت مرة أخرى بضع دقائق مملة . قالت فى رقة :
— لم تغيرت ؟ لم لم تعد رقيقاً مرحاً كما اعتدت أن تكون فى شارع زنامنسكى ؟ لقد مضى على معك قرابة الشهر ، ولكن يبدو لى أننا لم نبدأ الحياة بعد ، ولم نتكلم عن شئ كما ينبغى أن نفعل . أنت تحيبنى دائماً بفكاهة أو محاضرة طويلة باردة كأنك أستاذ . وفكاهاتك فيها برود أيضاً . . . لم انصرفت عن الحديث الجاد معى ؟

— أنا أجد دائماً فى كلامى .

— حسناً . لننتحدث إذن . بالله يا جورج . . . هل لنا أن نتحدث ؟
— يقيناً . ولكن عم ؟

قالت زينaida فيودورفنا حاملة :

— لننتحدث عن حياتنا . عن مستقبلنا . أنا لا أزال أرمم الخطط لحياتنا . الخطط الكثيرة . وأنا أستمتع بذلك ! جورج ، سأبدأ بهذا السؤال : متى تترك وظيفتك ؟
سأل أورلوف رافعاً يده عن جبينه :
— ولم ؟

— إن أفكارك لا تتفق وبقاءك فى الوظيفة . لا محل لك هناك .

ردد أورلوف :

— أفكاري ؟ أفكاري ؟ أنا موظف عادي بمعتقدى ومزاجى واحد من أبطال شدرين . أؤكد لك أنك تخلعين على ما ليس فى .

— جورج . أتَهزل من جديد ؟

— ألبتة . قد لا أكون قانعا بالوظيفة ، ولكنها على أية حال خير لى من غيرها . لقد اعتدتها ، وفيها ألقى أناساً على شاكلى . إن مكانى هناك ، وأنا أجده محتملاً .

— أنت تكره الوظيفة ، هى تثير حنقك .

— كذا ؟ أتظنين أنى لو تركت وظيفتى واستسلمت لأحلام اليقظة والعيش فى عالم آخر ، أ يكون ذلك العالم أحب إلى من الوظيفة ؟

غضبت زينايدا فيودورفنا ، ونهضت . قالت :

— إنك لتذم نفسك كى تعارضنى . أنا آسفة لأنى بدأت هذا الحديث .

— لم تغضبين ؟ أنا لم أغضب منك لأنك لست موظفة .

إن كل إنسان يعيش على هواه .

مضت زينايدا فيودورفنا تقول وقد عقدت يديها يائسة :

— لكن أتعيش أنت على هواك ؟ أأنت حر ؟ أنت

تقضى حياتك فى كتابة وثائق تخالف أفكارك ، وتخضع للسلطات وتتهىء رؤساءك بالسنة الجديدة ، ثم الورق ولا شئ غير الورق : الأدهى أن تعمل لنظام بغض إليك . لا . لا

يا جورج . لا ! لا ينبغي أن تصدر عنك مثل هذه الفكاهات الغليظة . هذا فظيع . أنت رجل أفكار ، وينبغي أن تعيش لأفكارك وحسب .

زفر أورلوف :

— أنت حقاً تجردين منى رجلاً يختلف عن الواقع .

فقالت زينايدا فيودورفنا بين دموعها :

— قل إنك لا تريد أن تكلمنى . أنت تكرهنى وحسب .

قال أورلوف لائماً وهو يجلس فى كرسيه :

— إسمعى يا عزيزتى . لقد سرك أن تقولى إنى رجل

واسع الاطلاع ، وتعليم من يعلم لا يأتى إلا بالضرر . أنا أعلم الأفكار كلها جيداً ، الكبير منها والصغير ، وهو ما تعنيه حين تسمينى رجل أفكار . وإذن فاذا فضلت الوظيفة ولعب الورق على تلك الأفكار ، كان عليك أن تثقى بأن لدى ما يدعونى إلى ذلك . هذا شئ . ثم إنك ، فيما أعلم ، لم تكونى موظفة قط ولم تكونى آراءك عن خدمة الحكومة إلا من الحكايات والقصص الالهية . وإذن فليس من الخطأ أن نتفق اتفاقاً نهائياً على ألا نتحدث فى الأشياء التى نعرفها من قبل أو الأشياء التى لا نصالح للحديث عنها .

قالت زينايدا فيودورفنا متراجعة كالمدعورة :

— لم تحدثنى على هذا النحو؟ لم ؟ فكر بالله يا جورج

فما تقول .

اختلج صوتها وانقطع . كان واضحاً أنها تحاول أن تحبس

دموعها ، ولكنها انفجرت باكية . قالت بالفرنسية وقد سقطت أمام أورلوف ووضعت رأسها على ركبتيه :

— أنا أذوى يا حبيبى جورج . أنا تعسة . أنا مجهدة . لا أطيق . لا أطيق . . . فى طفولتى زوجة أبى الشريرة البغيضة ثم زوجى ، والآن أنت . . . أنت ! أنت تقابل وهى بالبرود والسخرية . . .

ومضت تقول باكية :

— وتلك الخادم الفظيعة الوقحة . نعم . نعم . أنا لست زوجتك أو صديقتك بل امرأة لا تحترمها لأنها أصبحت خليلتك . . . سأقتل نفسى .

لم أكن أتوقع أن تؤثر كلماتها ودموعها فى أورلوف ذلك التأثير ، فقد احمر وجهه وتململ فى كرسيه ، وانطبع على محياه مكان السخرية ، غباء وفزع صبيانى . تتم خائراً وهو يلمس شعرها وكتفها :

— يا حبيبتى . لقد أخطأت فهمى . أرجوك أن تغفرى لى . لقد ظلمتك وإنى لأكره نفسى .

— بل أنا أهيئك بأينى وشكايتى . . . أنت رجل صادق كريم . . . نادر — أنا أشعر بذلك دائماً . ولكنى كنت خائفة العزم فى الأيام الأخيرة .

واندفعت زينايدا فيودورفنا تعانق أورلوف وتقبله على خده . قال :

— أرجوك ألا تبكى . . .

— لا . لا . . . كفانى ما بكيت . إننى الآن أحسن حالا .

قال وهو ما يزال يتململ فى كرسية :

— أما الخادم فسترحل غداً .

— لا يا جورج يجب أن تبقى . أسمع ! أنا لا أخشاها الآن . . . ينبغي على المرء أن يسمو على التفاهات ، ولا يتخيل الأشياء السخيفة . أنت على حق . أنت رجل رائع نادر . سرعان ما كفت عن البكاء . وأخذت تقص على أورلوف بصوت خفيض والدموع تلمع بين أهدابها ، وقد جلست على ركبتيه ، شيئاً حبيباً ، شيئاً كذكرى الطفولة والصبا . كانت تمسح وجهه ، وتقبله ، وتفحص يديه بما عليها من خواتم ، وتدقق النظر فى النقوش التى على سلسلة ساعته . كانت منتشية بما تقول وتقرّبها من الرجل الذى تحب ، ولعل الدموع التى ذرفتْها قد أصفت نفسها وأنعشتها فكان فى صوتها نبرة رائعة من الصراحة والاخلاص . وكان أورلوف يعبث بشعرها الكستنائى ويقبل يديها بلا صوت وهو يضغطهما على شفّتيه . ثم تناولا الشاي فى حجرة المكتب ، وقرأت زينايدا فيودورفنا بعض الخطابات جهراً ، وبعد منتصف الليل بقليل ذهبا إلى الفراش .

كان جنبي يؤلنى المأ شديداً فى تلك الليلة ، ولم أستطع أن أحس الدفء أو أنام حتى الصباح ، فسمعت أورلوف يذهب من غرفة النوم إلى المكتب . وبعد أن جلس هناك قرابة

الساعة دق الجرس فذهبت إلى المكتب بملابس النوم حافياً ،
وقد أنساني الألم والاجهاد كل عرف ونظام . كان أورلوف واقفاً
ينتظرني عند عتبة الباب وقد ارتدى عباءة وقلنسوة . قال
بغلظة :

— ينبغي أن تأتى مرتدياً ملابسك حين يرسل في طلبك .
أحضر شموعاً جديدة .

كدت أعتذر ولكن أصابتنى فجأة سعلة حادة ، فتعلقت
بالباب أتقى السقوط . قال أورلوف :
— أمرض أنت ؟

أظن تلك هي المرة الأولى التي خاطبني فيها أورلوف منذ
تعارفنا بصيغة الاحترام — يعلم الله لماذا . وأغلب الظن
أنى بملابس النوم وبوجهي وقد شوّهه السعال ، لم أحسن
القيام بدوري ولم أشبه الخادم إلا قليلا . قال :
— لم تعمل إذا كنت مريضاً ؟

أجبت :

— كي لا أموت جوعاً .

قال في رقة وهو يذهب إلى منضدته :

— ما أقطع الأمر كله !

وضعت شموعاً جديدة وأوقدتها وأنا ألبس معطفي بسرعة .

وكان أورلوف جالساً إلى المنضدة وقد مد ساقيه على كرسي
واطىء وأخذ يفض كتاباً . تركته شاردًا ولم يسقط الكتاب
من يده كما سقط في المساء .

يكبحنى الآن وأنا أكتب هذه السطور ، خوفي أن أبدو عاطفياً مضحكا - ذلك الخوف الذى غرس فى منذ الطفولة . أنا لا أدري كيف أكون طبيعياً حين أريد أن أتودد أو أقول شيئاً رقيقاً . والآن يمنعنى ذلك الخوف وقلة التجربة أيضاً - من أن أعبر تعبيراً واضحاً عما كان يمر بنفسى فى ذلك الوقت . لم أكن أحب زينايدا فيودورفنا ، ولكن الاحساس الانسانى العادى الذى أحمله لها ، كان فيه من الشباب والنضارة والفرح ما لم يكن فى حب أورلوف . .

حين كنت أعمل فى الصباح فى مسح الأحذية أو تنظيف الغرف ، كنت أنتظر فى لهفة اللحظة التى أسمع فيها صوتها ووقع أقدامها . ليتك تدرك ما كان يعنيه عندى أن أقف لأرقبها وهى تشرب قهوتها فى الصباح ، أو تتناول غداءها ، وأن أحمل لها سترة الفراء فى الردهة ؛ وأن أضع حذاء المطاط فى قدسيها الصغيرتين وقد أراحت يدها على كتفى ؛ وأن ألقاها عند الباب مقرورة مژرة بالصقيع ؛ وأن أصغى إلى تعليقاتها المقتضبة على الصقيع أو سائق العربة . كنت أتوق إلى أن أحب ، وأن تكون لى زوجة وطفل . كنت أريد لزوجتى المقبلة مثل ذلك الوجه والصوت . كنت أحلم بذلك عند العشاء وفى الطريق حين كنت أرسل فى طلبه ، وحين كنت أرقد يقظان بالليل . كان أورلوف ينفر من الأطفال

ومن الطبخ والقذور النحاسية وتفاهات النساء ، وكنت أعلم ذلك كله وأحتضنه في أحلامي ، وأحبه ، وأسأل القدر أن يمنحني إياه . كنت أحلم بزوجة ومحضن وبيت صغير ومماشى في الحديقة .

كنت أعلم أنى لو أحببتها حقاً ، لما أملت في أن تقع المعجزة وتستجيب لحبى ؛ ولكن التفكير في ذلك لم يكن يزعجنى . لم يكن في إحساسى الهادئ المتواضع القريب من العطف العادى ، غيرة من أورلوف ولا حسد له ، إذ كنت أعلم أن السعادة لرجل محطم مثلى لا توجد إلا في الأحلام .

كنت أتعذب مع زينايدا فيودورفنا حين تجلس في الليل تنتظر حبيبها جورج ، وقد جمدت نظرتها على كتاب لم تقلب منه صفحة ؛ أو حين كانت ترتعد وتشحب لمرور بوليا في الغرفة ، وخطر لى أن أنكأ ذلك الجرح الخبيث فأسارع بإخبارها بما يقال هنا . أيام الخميس على العشاء ، ولكن كيف أخبرها بذلك ؟ ازدادت رؤيتى لدموعها على الأيام . كانت في الأسابيع الأولى تضحك وتغنى لنفسها حتى حين لا يكون أورلوف بالمنزل ولكن سكوناً كثيلاً خيم على مسكننا مع الشهر الثانى ولم يكن ينقطع إلا في أسيات الخميس .

كانت تتملق أورلوف ، ولا تجد بأساً في أن تركع أمامه وتمسح به كالكلب حتى تغتصب منه بسمه أو قبلة مزورة . بل إنها كانت إذا مرت بمرآة وهى شديدة الكابة لم تستطع أن تقاوم النظر إليها وتسوية شعرها . كان يبدو لى غريباً

أنها مازالت تعنى بالشباب وتنتشى فرحاً بما تشتريه . إن ذلك لم يكن ينسجم مع حزنها الصادق . كانت تعنى بالأزياء المبتدعة وتوصى بشباب غالية . لم ؟ وعلى حساب من ؟ أذكر بخاصة ثوباً كان ثمنه أربعمائة روبل . أتدفع أربعمائة روبل فى ثوب لا لزوم له ، ولا نفع فيه ، على حين لا تحصل النساء لقاء عملهن الشاق طوال اليوم إلا على عشرين كوبكا بغير طعام ، ولا ينقد من يصنعن وشى فينيسيا وبروكسل إلا نصف فرنك فى اليوم ، زعماً بأنهن يستطعن أن يكسبن الباقي من طريق غير شريف ؟ عجبت ، وغازنى أن زينايدا فيودورفنا لا تعنى ذلك ، ولكنها ما كانت تخرج من المنزل حتى ألتمس لها عذراً وتفسيراً لكل شئ ، وأنتظر فى شغف أن يقرع لى البواب الجرس .

كانت تعاملنى كخادم ، ك مخلوق أدنى مرتبة . وقد يدلل المرء كلباً ولكنه مع ذلك لا يحس وجوده . كانت توجه إلى الأسئلة فأجيب عنها ولكن دون أن تحس وجودى . كان سيدى وسيدتى يستنكفان من أن يحدثانى بأكثر مما يحدث به الخدم ، ولو أنى ضحكت وأنا أقوم بالخدمة عند العشاء أو شاركت فى الحديث بكلمة ، لظننا بى الجنون وطردانى . على أن زينايدا فيودورفنا كانت رفيقة بى . فاذا أرسلتنى فى شئ أو شرحت لى طريقة مصباح أو شئ من هذا القبيل ، بدا يحياها رفيقاً صريحاً لطيفاً ، ونظرت بعينها فى وجهى . كنت إخالها فى تلك اللحظات تذكر شاكرة كيف اعتدت أن أحمل

إليها الرسائل في شارع زنامنسكى . وإذا دقت الجرس قالت بوليا ببسمة هازئة — وكانت ترانى مقرباً إلى السيدة وتكرهنى لذلك : — إذهب . إن سيدتك تريدك .

كانت زينايدا فيودورفنا ترانى مخلوقاً أدنى مرتبة منها ، وما كان يدور بخاطرها أنه ، إن كان فى المنزل فرد ذليل ، فانها هى ذلك الفرد . ما كانت تعلم أنى — أنا الخادم — كنت أشقى من أجلها ، وأسأل نفسى عشرين مرة كل يوم ماذا يخبئه لها القدر ، وكيف تكون النهاية . كان جلياً أن الأمور تزداد سوءاً على الأيام . لا شك أن أورلوف — الذى لم يكن يستطيع احتمال البكاء — قد بدأ يتجنب الحديث معها بعد ذلك المساء الذى تحدثا فيه عن عمله الرسمى . فكلماً أخذت زينايدا فيودورفنا تجادل أو تتوسل إليه ، أو بدت على وشك البكاء ، تلمس عذراً ما للعكوف فى حجرة المكتب أو الخروج . وكثر تخلفه عن النوم فى المنزل ، وكان تخلفه عن العشاء أكثر . وفى أيام الخميس كان هو الذى يوحى إلى أصدقائه بسهرة ما . وكانت زينايدا فيودورفنا ماتزال تحلم بالطهى فى المنزل ، والانتقال إلى مسكن جديد ، والرحلة فى الخارج ، ولكن أحلامها بقيت أحلاماً . كان الطعام يجلب من المطعم ، وقد سألها أورلوف ألا تثير مسألة الانتقال إلا بعد العودة من الخارج ؛ وأما عن الرحلة فقد أعلن أنهما لا يستطيعان أن يرحلا حتى يطول شعره ، إذ لا يجوز أن ينتقل المرء بين الفنادق ويخدم الفكرة دون شعر طويل .

يتم هذا كله ، أن كوكوشكين أخذ يتردد على المسكن في المساء في غيبة أورلوف . لم يكن في سلوكه شيء غير عادي ولكني لا أستطيع أن أنسى الحديث الذي عرض فيه أن يخلص أورلوف . كان يتحف بالشاي والنبيد الأحمر ، وكان من عادته أن يكتم الضحك ويعلن ، رغبة في أن يقول شيئاً ساراً ، أن الرابطة الحرة تفضل الزواج الشرعي من جميع الوجوه ، وأن الفضلاء من الناس ينبغي أن يأتوا إلى زينايدا فيودورفنا ويبحثوا عند أقدامها .

٨

انقضى عيد الميلاد كثيباً في توقع غامض للكارثة . وفي يوم رأس السنة أعلن أورلوف بغتة على الافطار أن عليه أن يعاون أحد الشيوخ في مهمة تفتيشية باحدى المقاطعات . قال مغيضاً :

— أنا لا أريد الذهاب ، ولكني لا أستطيع الاعتذار . على أن أذهب ولا حيلة في ذلك .

سرعان ما احمرت عينا زينايدا فيودورفنا لهذا النبأ ، سألت :

— أتغيب طويلاً ؟

— خمسة أيام أو نحوها .

قالت بعد أن فكرت لحظة :

— أنا سعيدة لذهابك حقاً ، فان في ذلك ترويحاً عنك .

وستقع في حب امرأة ما في طريقك ثم تعود فتحدثني عن ذلك .
كانت تحاول في كل فرصة أن تشعر أورلوف بأنها لا تقيد
حريته تقييداً ما ، وبأنه يستطيع أن يعمل ما يحب ، ولكن
تلك الحطة الساذجة الشفافة لم تكن تخدع أحداً ، بل كانت
تذكر أورلوف ، دون حاجة ، بأنه ليس حراً .

قال وبدأ يقرأ الصحيفة :

— أنا ذاهب هذا المساء .

أرادت زينايدا فيودورفنا أن تودعه على المحطة ، ولكنه
صرفها عن ذلك قائلاً إنه ليس ذاهباً إلى أمريكا ، ولن يغيب
خمس سنين ، وإنما هي خمسة أيام أو أقل .

افترقا بين السابعة والثامنة ، فطوقها بذراع ، وقبلها
على شفتيها وجبينها . قال في نبرة حارة حانية حتى لقد أثرت
في نفسي :

— كوني فتاة طيبة ، ولا تكتشي في غيبتى . رعاك الله .
كانت تنظر إلى وجهه في شره لتطبع ملامحه العزيزة على
ذاكرتها ، ثم وضعت ذراعيها في حنان حول عنقه وألقت رأسها
على صدره . قالت بالفرنسية :

— اغفر لي خلافاتنا . إن الزوجين لا بد أن يتنازعا
ماداماً متحايين . وأنا أحبك بجنون . لا تنس . . . أبرق إلى
كثيراً وأطنب .

قبلها أورلوف مرة أخرى ، وذهب مرتبكا دون أن يفوه
بكلمة . وحين سمع صكة القفل إذ أغلق الباب وقف في وسط

الدرج متردداً ونظر إلى أعلى . وقد بدا أنه لو انتهى إليه صوت من فوق لعاد أدراجه ، ولكن كان كل شيء هادئاً ، فسوى سترته وهبط الدرج متردداً .

كانت الزلاجات قد لبثت تنتظر عند الباب وقتاً طويلاً ، فركب أورلوف واحدة ، وركبت في الأخرى ومعى حقيبتان . كان الصقيع شديداً ، ودخان النيران ينبعث من الدروب الجانبية ، والرياح الباردة تحز وجهى ويدي وتكتم أنفاسى ونحن نغذ السير . فكرت وأنا أغمض عيني أى امرأة رائعة هى ! كم تحبه ! إن الكناسة لتجمع في هذه الأيام من الألفية وتستخدم في غرض ما ، بل إن الزجاج المكسور ليعتبر سلعة نافعة ، ولكن شيئاً ثميناً نادراً كحجب امرأة رقيقة شابة ذكية فاضلة ، يهمل هذا الإهمال ويضيع ! لقد رأى أحد رجال الاجتماع الأوائل أن كل رغبة شريرة يمكن أن تجعل فاضلة ، بينما تنبثق بيننا العاطفة الرقيقة النبيلة وتفنى مخدولة مغمورة وقد ابتذلها الناس أو قصروا عن فهمها . لم ذلك ؟

وقفت الزلاجات بغتة ، ففتحت عيني ورأيت أنا وقفنا في شارع سرجيفسكى إلى جانب منزل كبير كان يعيش فيه بكارسكى . غادر أورلوف الزلاجة واختفى في المدخل ، وبعد خمس دقائق خرج خادم بكارسكى عارى الرأس وصاح بى وقد أغضبه الصقيع :

— أنت أصم ؟ انقد السائق واصعد إلى فوق . إنهم يريدونك .

صعدت إلى الطبقة الأولى وأنا في حيرة تامة . لقد جئت إلى مسكن بكارسكى من قبل ، أعنى أنى وقفت فى الردهة ونظرت إلى الشوى ، وكان يدهنى دائماً ، بعد الشارع الرطب الكئيب ، بروعة إطارات الصور ، ويتحفه البرونزية ، وأثاثه الثمين . رأيت اليوم وسط هذه الروعة جروزين وكوكوشكين ثم أرلوف . قال قاصداً إلى :

— اسمع يا استيفان . سأبقى هنا حتى يوم الجمعة أوالسبت فإذا أتننى برقيات أو رسائل كان عليك أن تحضرها إلى هنا كل يوم . وستقول فى البيت طبعاً إنى رحلت ، وتبلغهم تحياتى . تستطيع الآن أن تذهب .

حين عدت إلى المنزل كانت زينايدا فيودورفنا مستلقية على أريكة فى الشوى تأكل كمثراة . ولم يكن فى حامل الشموع سوى شمعة واحدة مضيئة . سألت زينايدا فيودورفنا :

— هل أدركتما القطار ؟

— أجل يا سيدتى . إن صاحب السعادة يبعث بتحياته . ذهبت إلى غرفتى ووقدت أنا أيضاً . لم يكن عندى ما أعمله ، ولم أكن أريد القراءة . لم أكن دهشاً ولا ساخطاً ، ولكنى كددت ذهنى أبحث عن سبب لهذا الخداع . إن الفتیان دون العشرين هم وحدهم الذين يخدعون خليلاتهم على هذا النحو . كيف لم يتأت لرجل على مثل ذلك الحظ من التفكير والثقافة أن يتخيل شيئاً أحكم من هذا ؟ وأعترف أنى لم أكن أبخسه حقه من الذكاء ، بل أعتقد أنه لو شاء أن يخدع وزيره

أو غيره من أصحاب النفوذ لأبدى فى ذلك حذقاً واجتهاداً ؛ ولكنه رأى بلا ريب أن أول ما يخطر فى ذهنه كاف لخداع امرأة . فاذا نجحت الفكرة فأنعم بها ، وإلا فلا بأس — يستطيع أن يكذب عليها كذبة أخرى سريعة يسيرة دون أن يجهد ذهنه .

دقت زينايدا فيودورفنا لى الجرس من الغرفة المجاورة للمكتب عند منتصف الليل . وحين كان أهل المسكن الذى فوقنا يحركون كراسيهم ، ويصيحون مبتهجين بالعام الجديد ، كانت هى جالسة إلى المنضدة وقد أجهدها الرقاد الطويل ، وراحت تخط شيئاً على قطعة من الورق .

قالت مبتسمة :

— لأبد أن أرسل برقية . اذهب إلى المحطة مسرعاً ما استطعت واطلب إليهم أن يرسلوها وراءه . وحين خرجت إلى الشارع قرأت فى الورقة :

« ليأت العام الجديد بسعادة جديدة . أسرع وأبرق إلى . أنا افتقدك كل الافتقاد . تبدو غيبتك دهرأ . لست آسف إلا على أنى لأستطيع أن أرسل إليك بالبرق قلبى مع ألف قبلة . روح عن نفسك يا حبيبى . — زينا . »

أرسلت البرقية ، وأعطيتها الايصال فى صباح اليوم التالى .

أسوأ ما فى الأمر أن أورلوف لم يتحرز عن أن يطلع بوليا على سر خداعه ، فطلب إليها أن تذهب بقمصانه إلى شارع سرجيفسكى . فكانت بعد ذلك تنظر إلى زينايدا فيودورفنا بفرح خبيث وحقد لا أستطيع فهمه ، ولم تكن تمل من أن تضحك لنفسها فى سرور بغرقها أو بالبهو . كانت تقول متلذذة :

— لقد بقيت أكثر مما يجب . لقد آن لها أن ترحل . ينبغى أن تدرك ذلك بنفسها .

كانت تحس بغريزتها أن زينايدا فيودورفنا لن تقيم معنا طويلا ، فلم تضع الفرصة بل استلبت كل ما وقعت عليه عيناها من قناني العطر ، ودبايس الشعر الصدفية ، والمناديل والأحذية ! وفى اليوم التالى لعيد رأس السنة طلبت زينايدا فيودورفنا إلى غرفتها وأخبرتني بصوت خفيض أنها تفتقد ثوبها الأسود ، ثم أخذت تجوس خلال الغرف كلها ويبدو على وجهها الشحوب والرعب والاشمئزاز وهى تخاطب نفسها :

— هذا كثير . لقد تجاوز الأمر كل حد . هذه قحة لم يسمع بمثلها .

حاولت عند الغداء أن تصيب شيئا من الحساء ولكنها لم تستطع : لقد كانت يداها ترتجفان ، وكانت شفتاها ترتعدان أيضاً . كانت تنظر إلى الحساء وإلى الكعكات الصغار وهى

خائرة تنتظر زوال الرعدة ، وبغثة لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى بوليا . قالت :

— يمكنك أن تذهبي يا بوليا . إن استيفان وحده يكفي أجابت بوليا :

— لا بأس عندي في البقاء .

فعدت زينايدا فيودورفنا تقول وهي تقف مضطربة أشد اضطراب :

— لا حاجة بك إلى البقاء . اتركي المنزل . ابحي لك عن مكان آخر . ارحلي تová .

— لا أستطيع أن أذهب دون أن يأمر السيد . إنه ألحقني بخدمته والأمر له .

قالت زينايدا فيودورفنا وقد احمر وجهها إحمراراً شديداً :
— تستطيعين أن تتلقى الأوامر مني أنا أيضاً . أنا السيدة هنا .

— قد تكونين السيدة ، ولكن السيد وحده هو الذي يستطيع طردى . إنه هو الذي ألحقني بخدمته .

صاحت زينايدا فيودورفنا وهي تقرع الطبق بسكينها :
— لا تبقى هنا لحظة بعد الآن . أنت لصّة . أسمعين ؟
رمت زينايدا فيودورفنا فوطتها على المائدة ، وأسرعت بالخروج من الغرفة بوجه معذب يثير الشفاق . وخرجت بوليا أيضاً وهي تنتحب وتولول بشئ غير واضح . بردت القطة والحساء ولأمر ما لاحت لى أطايب المطعم حقيرة لصّة مثل

بوليا ، وكان على كعكتين فى طبق مسحة من التعاسة والاشم .
خيل لى أنهما تقولان : « سعاد إلى المطعم اليوم . وغداً نقدم
لموظف أو مغن شهير . »

سمعت بوليا من غرفتها تتمم :

— هى سيدة لطيفة حقاً . لقد كنت أستطيع منذ زمن
بعيد أن أكون سيدة من هذا الطراز ، ولكن لى شيئاً من
احترام النفس ! سنى أينا تذهب أولاً .

دقت زينايدا فيودورفنا الجرس . كانت جالسة فى ركن
من غرفتها وكأنها وضعت فى ذلك الركن عقاباً لها . سألت :

— ألم تأت برقية ؟

— كلا يا سيدتى .

— اسأل البواب فقد تكون هناك برقية .

وصاحت خلفى :

— ولا تترك المنزل . أنا أخشى أن أترك وحيدة .

وكان على بعد ذلك أن أهبط كل ساعة أسأل البواب هل
جاءت برقية . أعترف أن ذلك الوقت كان شنيعاً ! تناولت
زينايدا فيودورفنا الغداء والشاي فى غرفتها حتى تتجنب بوليا ،
وهناك نامت أيضاً على أريكة قصيرة كالهلال ، وأعدت
فراشها بنفسها . كنت أذهب فى الأيام الأولى بالبرقيات
ولكنها فقدت ثقها بى حين لم يأت جواب ، وراحت ترسل
البرقيات بنفسها ، وبدأت حين أنظر إليها أترقب أنا أيضاً أن
تأتى برقية . كنت أرجو أن يدبر خدعة ما ، فيرتب مثلاً أن

ترسل إليها برقية من إحدى المحطات . وظننت أن جروزين أو كوكوشكين كانا خليقين أن يذكرها بنا ، إن كان قد شغل بالورق أو تعلق بامرأة أخرى . ولكن توقعنا كان عبثاً . كنت أذهب إلى زينايدا فيودورفنا خمس مرات في اليوم ، وفي نيتي أن أصارحها بالحقيقة ، ولكن عينيها كانتا تشيران الشفقة كعيني ظبي ؛ وقد تخاذلت كتفاها ، وارتعدت شفتاها ، فكنت أخرج دون أن أنبس بكلمة . كان الاشفاق والعطف يجرداني من كل رجولة . وكانت بوليا ترتب مكتب السيد وغرفة نومه فرحة راضية كأن لم يحدث شيء ، وتفتش في الصوانات ، وتقرقع بالأواني ، فاذا مرت زينايدا فيودورفنا تمتمت بشيء ما وسعلت . كان يسرها أن سيدتها تختبئ منها . وفي المساء كانت تخرج إلى مكان ما ، وتعود في الثانية . وكان على أن أفتح لها الباب وأصغى لما تقوله عن سعلتي . وسرعان ما كنت أسمع بعد ذلك رنين الجرس ، فأركض إلى الغرفة المجاورة للمكتب حيث تبرز زينايدا فيودورفنا رأسها من الباب وتسأل وهي تنظر إلى يدي لترى هل معي برقية :

— من دق الجرس ؟

وحين دق جرس الباب أخيراً يوم السبت ، وسمعت على الدرج الصوت المألوف ، استبد بها الفرح وانفجرت باكية . اندفعت لتقبله ، وعانقته وقبلته على صدره وأكامه ، وغمغمت بشيء لا يفهم . وصعد البواب بالحوائب ، وسمع صوت بوليا المرح — بدا المنزل كأن أحداً عاد إليه ليقضى عطلة .

سألت زينايدا فيودورفنا وهي تلهث من الفرح :
 — لم لم ترسل برقية ؟ لم ؟ لقد كنت في شقاء لا أدرى
 كيف مرت به . . . آه ، يا إلهي !
 قال أورلوف :

— الأمر يسير ! لقد عدت مع الشيخ إلى موسكو في اليوم
 الأول ، فلم ألتق برقيات . سأقص عليك يا حبيبتي بعد الغداء
 كل ما عملته . لا بد لي الآن من النوم الطويل . . . لقد ألتفتني
 الرحلة .

كان واضحاً أنه لم ينم ليلته ، فلعله قضاهما يلعب الورق
 ويشرب في إسراف . وقد ذهبت به زينايدا فيودورفنا إلى
 فراشه ، وبقينا طول اليوم نمشي على أطراف الأصابع . وصر
 الغداء بسلام . ولكن العتاب بدأ حين ذهبا إلى المكتب
 يشربان القهوة . فأخذت زينايدا تتحدث بسرعة وبصوت
 خفيض عن شيء ما . كانت تتحدث بالفرنسية وكلماتها تنساب
 كالغدير . ثم سمعت أورلوف يزفر زفرة عالية ، وسمعته يقول
 بالفرنسية :

— يا إلهي . أليس لديك شيء جديد تقولينه سوى هذه
 القصة التي لا تنتهي عن أخطاء خادمك ؟

— ولكنها سرقتني يا عزيزي ووجهت إلى الإهانات .

— ولم لا تسرقني أنا أو توجه إلى إهانة ؟ لم لا ألحظ أنا

الخدم أو البوابين أو الوصفاء ؟ أنت نزقة يا عزيزي ترفضين
 أن تعرفي نفسك . . . الحق أني بدأت أشك أنك في حالة خاصة ،

فحين عرضت عليك أن ترحل صممت على بقاءها ، والآن تريدان أن أطردها . أنا أيضاً أستطيع أن أكون عنيداً في مثل هذه الأحوال . أنت تريدان طردها وأنا أريدها أن تبقى : هذه هي الطريقة الوحيدة لشفاء أعصابك .

صاحت زينايدا فيودورفنا فزعة :

— حسناً . حسناً . . . لنضرب عن هذا الحديث . . . لنؤجله إلى غد . . . حدثني الآن عن موسكو . . . ماذا يجري في موسكو ؟

١٠

في اليوم التالي — وكان السابع من يناير وهو يوم القديس جون — ارتدى أورلوف سترته السوداء بعد الغداء ، ووضع وسامه كي يزور أباه ويهنئه بيوم القديس الذي سمي الأب باسمه . كان عليه أن يخرج في الساعة الثانية ، ولكنه كان قد ارتدى ملابسه والساعة لم تعد النصف بعد الواحدة . ماذا عساه يصنع في نصف الساعة الباقي ! أخذ يتمشى في الشوى وهو يلتقي بعض أبيات للتهنئة كان قد أنشدها بين يديه أبيه وأمه وهو طفل .

وجلست زينايدا فيودورفنا — وكانت على أهبة الخروج إلى الخياطة أو إلى السوق — تصغى إليه وتبتسم . ولست أدري كيف بدأ الحديث بينهما ، ولكنني حين ذهبت إلى أورلوف بقتازيه كان واقعاً أمامها بوجه متوسل فيه نرق الأطفال .

وكان يقول :

— أستحلفك بالله ، بكل شيء مقدس ، ألا تتكلمى فى أمر يعرفه الناس جميعاً ! يا للموهبة التعسة التى وهبتها نساؤنا العاقلات المفكرات فى الحديث بحرارة وتعمق عن الأشياء التى ملها كل تلميذ مللاً قاتلاً ! آه ، لو أنك استبعدت من حياتنا البيتية كل هذه المسائل الخطيرة ! كم أشكرك لو فعلت !

— يبدو أننا — نحن النساء — لا يجوز أن تكون لنا آراء خاصة بنا .

— أنا أسمح لك بكل ما تشائين من التحرر ، وبأن تستشهدي بمن تريدين من المؤلفين ، ولكن لتتفق على شيء واحد : لا تثيرى فى حضرتى أحد هذين الموضوعين : فساد الطبقات الراقية ، وشرور نظام الزواج . أرجو أن تفهمينى أخيراً . إن الطبقة الراقية تعاب دائماً إذا قبولت بعالم التجار والقساوسة والعمال والفلاحين وزيد وعمرو من كل قبيل . أنا أكره الطبقتين كليهما ، ولكنى لو خيرت بينهما لاخترت دون تردد الطبقة الراقية ، ولا أكون فى ذلك مغالطاً أو متكلفاً ، إذ أنها تلائم ذوقى . إن ديانا تافهة فارغة ولكننا على أية حال نحسن الحديث بالفرنسية ، ونقرأ شيئاً ما ، ولا نلطم الواحد منا على أضلاعه حتى فى أعنف المشاجرات ، بينما زيد وعمرو وسادتهم التجار يتحدثون بمثل : « يا ميت فل » و « ولعه » و « أصفى عينك » ويتبدلون تبذل الحانات ، ويكشفون عن عقلية خرافية مشينة .

— إن الفلاح والتاجر يقدمان لك الطعام .

— نعم . ولكن ماذا في ذلك ؟ إن هذا حجة علىّ وعليهم أيضاً . إنهما يطمعاني ثم يرفعان لي قبعتيهما ، ومن ذلك يبدو أنهما ليسا من الذكاء والشرف بحيث يفعلان غير ذلك . أنا لا ألوم أحداً ولا أمتدح أحداً . إنما أقصد أن الطبقة الراقية والطبقة السفلى في الشر سواء . إنني أكرههما باحساسي وعقلي ولكن ذوقي أميل إلى الطبقة الراقية .

ومضى أورلوف يقول وهو ينظر إلى ساعته :

— أما عن شرور نظام الزواج ، فقد آن لك أن تفهمي أن ليس في النظام نفسه شرور . وكل ما هناك هو أنكم لا تعلمون ما تريدون من الزواج . ماذا تطلبون ؟ إن الحقيقة الكامنة وراء المعاشرة الشرعية وغير الشرعية ؛ وراء كل صنوف الارتباط — واحدة لا تتغير . وأنتن — أيتها النساء — تعشن لهذه الحقيقة وحدها : هي عندكن كل شيء ، ولا يكون لوجودكن معنى بدونها . أنتن لا ترين شيئاً سواها ، وأنتن تنلنها . ولكن منذ أخذتن في قراءة الروايات أصبحتن تخبطن منها : أنتن تتخبطن ، وتبدلن رجالكن مستهترات ، وقد بدأتن تتحدثن عن شرور الزواج حتى تبررن هذا الاضطراب . وما دمتن لا تستطعن ولا تردن التخلي عما يكمن وراء ذلك كله : عن عدوكن الرئيسي ؛ عن شيطانكن ؛ ومادمتن تخدمنه خاضعات فأى فائدة ترجى من مناقشة الأمر في جد ؟ إن كل ما تقلنه قد يكون مغالطة وتكلفاً . أنا لن أصدق ما تقلنه .

ذهبت أسأل البواب عما إذا كانت الزلاجة واقفة بالبواب ،
و حين عدت وجدت الأمر قد تطور إلى شجار ، كانت العاصفة
قد ثارت — كما يقول الملاحون .

قالت زينايدا فيودورفنا وهى تذرع الشوى فى انفعال
شديد :

— أراك تبغى أن تصدمنى اليوم بسوداويتك . يحقنى
أن أصغى إليك . أنا طاهرة أمام الله والانسان ، ولست نادمة
على شئ . لقد تركت زوجى وأتيت إليك وأنا فخور بذلك .
أقسم بشرفى أنى فخور بذلك .
— حسن إذن .

— إذا كنت رجلاً فاضلاً شريفاً وجب عليك أنت أيضاً
أن تفخر بذلك . إنه يرفعك ويرفعنى فوق آلاف من الناس
يتوقون إلى أن يفعلوا ما فعلنا ولكنهم لا يجرءون ، عن جبن
منهم أو حذر وضع . ولكنك لست رجلاً فاضلاً . . . أنت
تخشى الحرية وتسخر من وحى الاحساس الصادق ، خوفاً من
أن يتهمك أحد الجاهل بأنك مخلص . أنت تخشى أن تقدمنى
إلى أصدقائك ، وليس أشق عليك من أن تصحبنى فى الطريق .
أليس ذلك صحيحاً ؟ لم لم تقدمنى هذه المدة كلها إلى أيبك
أو ابن عمك ؟ لم !

وصاحت زينايدا فيودورفنا وهى تدق الأرض بقدمها :
— كلا . لقد ضقت بهذا أخيراً . أنا أطلب ما هو من

حقى . يجب أن تقدمنى إلى أيبك .

— إذا شئت أن تعرفيه ، فاذهي وقدمي نفسك إليه .
إنه يقابل الزائرين كل صباح بين العاشرة والعاشرية والنصف .
قالت زينايدا فيودورفنا وهي تضرب في يأسها كفاً بكف :
— يا لك من سافل ! أنا أمقتك لقسوتك حتى لو كنت
غير صادق في قولك ، أو كان كلامك لا يعبر عن رأيك .
أوه . يا لك من سافل !

— إننا لا نزال ندور وندور ولا نلتقي في النقطة الحقيقية .
إن النقطة الحقيقية هي أنك ارتكبت خطأ ولكنك لا تريد
أن تعترف به . لقد تخيلتني بطلا ، وأنى صاحب أفكار ومثل
سامية . وإذا بي موظف عادي ولاعب ورق لا يتحمس
لنوع من الأفكار . أنا خليق بأن أمثل العالم الفاسد الذي
هربت منه لأنه أثارك بتفاهته وفراغك . اعترفي وكوني عادلة ؛
لا تسخطي على بل اسخطي على نفسك لأن الخطأ خطؤك
لا خطئي .

— أجل . أعترف أني أخطأت .

— حسن إذن . لقد وصلنا إلى تلك النقطة أخيراً
والحمد لله . والآن اسمعي هذا أيضاً ، أرجوك . أنا لا أستطيع
أن أرتقي إلى مستواك — فان انحطاطي لا يسمح لي بذلك .
وأنت أيضاً لا تستطيعين أن تهبطي إلى مستواي ، لأن سموك
لا يسمح لك بذلك . وإذن فلم يبق أمامنا غير شيء واحد ...
فأسرعت زينايدا فيودورفنا تسأل وقد كتمت أنفاسها ،
واستحالت فجأة بيضاء كصفحة من الورق :

— ماذا ؟

— إذا استعصنا بالمنطق . . .

فبدهته زينايڊا فيودورفنا قائلة بالروسية فى صوت متهاك :
— جورجى . لم تعذبني ؟ لم هذا ؟ فكر فى تعاستى . . .
أسرع أورلوف إلى حجرة المكتب وقد خشى الدموع ،
ولست أدري لم أرتج الباب وراءه ، أكان ذلك إمعاناً منه فى
إيلاساها ؟ أم لأنه ذكر أن الباب يرتج فى مثل هذه الحالة ؟
صاحت وركضت خلفه ولثوبها خفيف مسموع . دقت الباب
صائحة :

— ما معنى هذا ؟ ما . . . معنى هذا ؟

وردت السؤال بصوت حاد يقطعه الغضب :

— آه . إذن فهذه فعلتك ! دعنى أخبرك أنى أمقتك ،
أحتقرك . لقد انتهى كل شئ بيننا الآن .

وسمعت بكاء هستيريا يمتزج بالضحك ، وسقط شئ صغير
عن النضد فى الثوب وانكسر . وخرج أورلوف إلى الردهة
من باب آخر وارتدى معطفه وهو ينظر حوله فى اضطراب
وخرج .

مر نصف ساعة ومرت ساعة وهى ما تزال تبكى . ذكرت
أن لم يكن لها أب أو أم أو أقرباء ، وأنها كانت تعيش هنا بين
رجل يكرها ، وبوليا التى تسرقها — كم بدت لى حياتها
مقفرة ! لست أدري لم ذهبت إليها فى الثوب . كانت فى ضعفها
وانكسارها تبدو بشعرها الجميل كتمثال للحنان والرقّة .

كانت تتألم كأنها مريضة ، وكانت مضطجعة على أريكة وقد أخفت وجهها وجسمها كله يرتعد .

سألت بلطف :

— سيدتى ؛ ألا آتى بطبيب ؟

قالت ونظرت إلى بعينها الدامعتين :

— كلا . . . لا حاجة لذلك — ليس بى شئ . أنا أشكو

صداعاً . . . أشكرك .

خرجت وفى المساء كتبت خطاباً بعد خطاب وأرسلتنى إلى بكارسكى ثم إلى جروزين ثم إلى كوكوشكين ، وأخيراً إلى حيثما شئت على أن أجد أورلوف وأعطيته الخطاب . وكانت توجئنى فى كل مرة أعود فيها بالخطاب . وكانت تتوسل إلى ، وتدس النقود فى يدي — كأنها محمومة . ولم تنم الليل كله بل جلست فى الثوى تحدث نفسها .

وعاد أورلوف فى اليوم التالى على العشاء وتصالحا .

وفى أول خميس بعد ذلك شكأ أورلوف لأصدقائه من حياته التى لا تطاق ، وأسرف فى التدخين .

قال فى اضطراب :

— ليست هذه حياة . إنها العذاب بعينه : دموع ونحيب

وأحاديث عقلية ورجاء فى المغفرة ثم دموع ونحيب من جديد ، وخلاصة الأمر أن لم يعد لى مسكن خاص بى . أنا أشقى وأشقيها معى . لا شك أنى لن أعيش على هذه الحالة شهراً أو شهرين من بعد ! كيف أستطيع ؟ ولكن قد يفرض على ذلك . . .

قال بكارسكى :

— لم لا تتكلم إذن !

— لقد حاولت ولكنى لا أستطيع . إن المرء ليقول الحقيقة بشجاعة ومهما تكن لرجل حر رشيد ، ولكنه فى حالتى هذه يقف أمام مخلوق مجرد عن الإرادة ، وعن قوة الشخصية وعن المنطق . أنا لا أطيق الدموع ، فهى تسلبنى كل سلاح ، وحين تبكى أكاد أقسم أن أحبها حباً خالداً ، وأكاد أبكى أنا أيضاً . لم يفهم بكارسكى ، وحك جبهته العريضة فى اضطراب وقال :

— خير لك أن تستأجر لها مسكناً آخر . الأمر يسير جداً .

زفر أورلوف قائلاً :

— هى تريدنى أنا لا المسكن . ولكن ما فائدة الكلام ؟ أنا لا أسمع إلا أحاديث لا تنتهى ، ولا أجد مخرجاً من ورطتى . هذه لا شك حالة أنا فيها « آثم بغير إثم » . لا أظن أنى كفاءة ولكن يبدو أن لا مفر من وقوعى فى السلة . إن آخر ما فكرت فيه هو أن أصبح بطلا . أنا لم أستطع قط أن أحتمل قصص ترجيف ، والآن وعلى غير أهبة تفرض على البطولة وكأن ذلك لا غاظتى . أؤكد لها — بشرفى — أنى لست بطلا ألبته ، وأقدم إليها براهين قاطعة على ذلك ولكنها لا تصدقنى . لم لا تصدقنى . أظن أن فى شيئاً من سمات البطولة !

قال كوكوشكين ضاحكاً :

— خير لك أن تذهب فى دورة تفتيشية بالأقاليم .

— أجل . هذا كل ما بقى لى .

وبعد أسبوع من هذا الحديث أعلن أورلوف أنه أمر من جديد بمرافقة الشيخ ، وذهب في المساء نفسه بحقائبه إلى دار بكارسكى .

وقف عند الباب رجل شيخ فى الستين يرتدى معطف فراء يصل إلى الأرض ، وعلى رأسه قبة من فراء البيدستر .
سأل :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟

ظننته أول الأمر أحد المرايين من دائئى جروزين الذين كانوا يأتون إلى أورلوف أحياناً يتقاضون دفعات صغيرة من ديونهم ، ولكنه حين دخل الردهة ، وفتح معطفه رأيت الحاجبين الكثيفين والشفيتين المزمومتين اللتين كنت أعرفهما جيداً من الرسوم ، ورأيت صفين من النجوم على البزة العسكرية عرفت فيه الشيخ والد أورلوف ، السياسى الممتاز .

أجبت بأن جورجى إيفانتش لم يكن بالمنزل ، فلوى الشيخ شفتيه بصرامة ونظر فى الفضاء يفكر وقد بدت لى منه صفحة وجهه الجافة الدرداء . قال :

— سأترك له كلمة . أدخلنى إلى المكتب .

ترك حذاء المطاط فى الردهة ، ودلف إلى المكتب دون أن يخلع معطف فرائه الثقيل ، وهناك جلس أمام المنضدة وفكر ثلاث دقائق قبل أن يتناول القلم ، وهو يظل وجهه

بيديه كأنما يتقى الشمس كما يفعل ابنه حين ينحرف مزاجه .
 كان يبدو على وجهه الحزن والتفكير ونظرة الاستسلام التي
 لم أرها إلا على وجوه الشيوخ المتدينين . وقفت خلفه أنظر
 إلى رأسه الأصلع ، وإلى الأخدود الذي في قفاه ، وظهر في مثل
 وضوح النهار أن ذلك الرجل الضعيف الشيخ كان الآن في
 قبضتي . لم يكن في المسكن أحد إلا أنا وعدوى . ما كان على
 إلا أن أستخدم قليلا من العنف الجسدى ثم أنتزع ساعته حتى
 أخفى الغرض من الجريمة ، وأفر من الطريق الخلفى ، وأجنى
 بذلك فوق كل ما تخيلت أن أجنيه إذ قمت بدور الخادم . فكرت
 أن لن تسنح لى فرصة كهذه ؛ ولكنى لم أعمل بل أخذت
 أنظر شارداً إلى صلعته ثم إلى فرائه ، وأتأمل علاقة الرجل
 بابنه الوحيد ، وأفكر فى أن الذين أفسدهم السلطان والثروة
 قد لا يرغبون فى الموت . سأل وهو يكتب بأحرف كبيرة
 شيئاً على الورق :

— أمضى عليك فى خدمة ابنى وقت طويل ؟

— ثلاثة أشهر يا صاحب السعادة .

أتم الخطاب ووقف . كانت الفرصة ما تزال أمامى .
 استنهضت نفسى وجمعت قبضتى ، أحاول أن أثير فى نفسى
 بقية من الحقد القديم . وتذكرت الحقد الشديد الملح العنيد
 الذى كنت أضمره له منذ قليل . . . ولكن من الصعب أن
 تقدح ثقاباً على حجر متفتت . لم يعد الوجه الحزين الشيخ ،
 وبريق أنجمه الباردة يثير فىّ إلا أفكاراً حقيرة تافهة

لا ضرورة لها عن زوال كل شئ أرضى ، وعن دنو الموت .
قال الشيخ :

— سعد يومك يا أخى .

ووضع قبعته وخرج .

لقد تغيرت ما فى ذلك شك ، لقد تبدلت . ولكى أفنع
نفسى أخذت أذكر الماضى ، ولكن سرعان ما ضقت بذلك
كأنى استرقت النظر عفواً إلى ركن مظلم رطب . ذكرت
رفاقى وأصدقائى ، وكان أول ما خطر لى أن كيف أخجل
وأضطرب لو أنى لقيت واحداً منهم . ماذا أنا الآن ؟ أى شئ
لدى أفكر فيه أو أعمله ؟ إلى أين أذهب ؟ لماذا أعيش ؟

لم أستطع أن أخرج من ذلك كله بشئ ؛ لكنى كنت أدرك
أمراً واحداً — أنى يجب أن أسرع بجمع أشياءى ثم أرحل .
لقد كان لاشتغالى بالخدمة معنى قبل زيارة الشيخ ، ولكنه
الآن شئ سخيـف ، كانت الدموع تتساقط فى حقيبتى المفتوحة ،
كنت أحس حزناً لا يطاق ، ولكن كم كنت أتوق إلى
الحياة ! كنت أود لو أحتضن وأطوى فى حياتى القصيرة كل
فرصة تعرض للانسان . كنت أريد أن أتكلم وأقرأ ، وأقوم
بالطرق فى مصنع كبير ، وأقف للحراسة ، وأحرث . كنت
أتوق إلى طريق نفسى ، وإلى البحر والحقول — إلى كل مكان
يهفو إليه خيالى . وحين عادت زينايدا فيودورفنا ، أسرعت
أفتح لها الباب ، ونزعت عنها معطف الفراء . المرة الأخيرة !
زارنا فى ذلك اليوم زائران عدا الشيخ . جاء جروزين

مساء وقد حل الظلام ، ليحمل إلى أورلوف بعض الأوراق ،
 ففتح درج النضد وتناول الأوراق المطلوبة ، وسألني وهو
 يطويها أن أضعها في الردهة إلى جانب قبعته ، في حين ذهب
 هو ليرى زينايدا فيودورفنا . كانت مضطجعة على أريكة في
 الشوى وقد جعلت ذراعيها تحت رأسها ، وكانت قد مرت خمسة
 أيام أو ستة منذ رحل أورلوف في دورته التفتيشية ، ولم يكن
 أحد يعلم متى يعود ، ولكنها لم ترسل في هذه المرة برقيات
 ولم تكن تتوقعه ، ولم يبد عليها أنها تشعر بوجود بوليا التي
 ظلت تقيم معنا . كنت أقرأ على وجهها الشاحب الذي غاضت
 منه كل عاطفة : « ليكن ما يكون » . كانت تريد مثل أورلوف
 أن تكون شقية لأنها عبيدة . كانت ترقد الأيام على الأريكة
 لتغيظ نفسها وتغيظ العالم كله ؛ وهي لا ترغب في شيء ولا
 تتوقع شيئاً لنفسها سوى الشر . لعلها كانت تتصور عودة
 أورلوف ، ونزاعها المحتوم معه ، وزيادة انصرافه عنها ، وخيائته
 لها ، ثم افتراقهما ، ولعلها كانت ترتاح إلى تلك الأفكار المؤلمة .
 ولكن ماذا تقول لو أنها عرفت الحقيقة الواقعة ؟

قال جروزين وهو يحبها ويقبل يديها :

— أنا أحبك يا عزابتي . يا لحنانك ! كذلك رحل العزيز

جورج . لقد رحل الوغد !

كان يكذب .

وجلس وهو يزفر ويمسح يدها بلطف . قال :

— دعيني أقض معك ساعة يا عزيزتي ، فأنا لا أريد

الذهاب إلى بيتي ، ولا زال الوقت أبكر من أن أذهب إلى بيت بيرشوف . إن آل بيرشوف يحتفلون اليوم بعيد ميلاد ابنتهم كاتيا . إنها فتاة لطيفة !

أتيت له بقدر من الشاي ، وبزجاجة كونياك . فشرب الشاي ببطء وفي تردد ظاهر ، وقال لي باستحياء وهو يعيد إلى القدر :

— أعندك . . . شئ يؤكل يا صديقي ؟ إنني لم أتعش . لم يكن في المسكن طعام ، فذهبت إلى المطعم وأتيت له بعشاء الروبل المألوف . قال لزينايدا فيودورفنا وهو يشرب كأس الفودكا :

— نخب صحتك يا عزيزي . . . إن ابنتي الصغيرة ؛ ابنتك بالتعميد ، تبعث لك بحبها . الطفلة المسكينة ! إنها كسيحة — وزفر — آه ، يا للأطفال ، يا للأطفال ! مهما تقولوا يا عرايتي فجميل أن يكون المرء أباً . إن جورج العزيز لا يستطيع أن يفهم هذا الاحساس .

وعاد يشرب ، وأخذ يأكل بشراهة ، شاحباً نحيلاً قد وضع الفوطة على صدره كبعدة الطفل ، وهو يرنو متأثماً كالصبي الصغير ، إلى زينايدا فيودورفنا ثم إلى . كان يبدو أنه ربما بكى لو لم أعطه القطاة أو الفالودج . وحين شبع دب فيه الحيوية وبدأ يقص مستضحكا قصة ما عن أسرة بيرشوف ، ولكنه ما لبث أن صمت حين رأى القصة مملة ، ووجد زينايدا فيودورفنا لا تضحك . وشاع إحساس مباغت بالكآبة ، فجلسا في الثوى

بعد أن أتم عشاءه على ضوء شمعة واحدة وهما لا ينبسان بكلمة . كان يؤله أن يكذبها القول ، وكانت هي تريد أن تسأله عن شيء ، ولكنها لا تعقد العزم على السؤال . وكذلك مر نصف ساعة ، ثم نظر جروزين إلى ساعته وقال :

— أظن أن قد حان وقت ذهابي .

— لا . البت قليلا . . . يجب أن نتحدث .

وصمما من جديد ؛ ثم جلس إلى البيان ، وضرب وترًا ، ثم بدأ يعزف ويغنى في رقة : « ما الذى يضمه لى الصباح المقبل ؟ » ، ولكنه كعادته نهض بغتة وهز رأسه . قالت زينايدا فيودورفنا :

— اعزف شيئًا .

سأل بهزة من كتفيه :

— ماذا أعزف ؟ لقد نسيت كل شيء . لقد انصرفت عن

العزف منذ زمن طويل .

ثم نظر إلى السقف كأنما يحاول أن يتذكر ، وعزف قطعتين لتشايكوفسكى عزفًا رائعًا بارعًا حارًا . كان وجهه — كشأنه دائماً — لا يدل على ذكاء أو غباء ، ولقد أدهشنى أن أجد الرجل الذى اعتدت أن أراه غارقًا فى الشناعة والرديلة ، قادرًا على مثل ذلك النقاء وعلى السمو إلى إحساس لا أستطيع بلوغه ، تألق وجه زينايدا فيودورفنا وراحت تذرع الشوى فى انفعال . قال :

— انتظرى قليلا يا عرابتي . سأعزف لك شيئًا إذا

استطعت أن أذكره . لقد سمعته يعزف على الفيولونسيل .
بدأ على استحياء ، وهو يتصيد النغمات ، حتى إذا ما استجمع
الثقة بنفسه ، عزف « أغنية البجعة » لسان سانس . عزفها
من أولها إلى آخرها ثم عاد فعزفها من جديد . قال :

— أغنية جميلة . أليس كذلك ؟

وقفت زينaida فيودورفنا إلى جانبه وقد أثرت فيها الموسيقى ،
وسألت :

— حدثني في صراحة الصديق . ماذا تظن بي ؟

قال وهو يرفع حاجبيه :

— ماذا أقول ؟ أنا أحبك ولا أظن بك إلا خيراً — ثم
مضى يقول وهو يحك كفه عند المرفق ويعبس — ولكن إذا
شئت أن أحدثك عن الموضوع الذى يهمك حديثاً ما ، فاعلمى
يا عزيزتى . . . أن اتباع إحياء القلب دون قيد لا يعود على
الأخيار بالسعادة دائماً . يبدو لى أن المرء لا ينبغي أن يخفى
عن نفسه — لتكون له الحرية والسعادة معاً — أن الحياة
خشنة قاسية لا ترحم فى رجعتها ، وأن المرء ينبغي أن يقابلها
بما هى أهله — أعنى أن يكون عنيفاً قاسياً فى كفاحه لأجل
الحرية . هذه هى فكرتى .

قالت زينaida فيودورفنا ببسمة حزينة :

— هذا فوق طاقتى . أنا مجتهدة . أنا مجتهدة حتى لأعجز

عن رفع أصبع فى سبيل خلاصى .

— ادخلى الدير .

قال ذلك هازلاً ، ولكنه ما كاد يقوها حتى لمعت الدموع في عيني زينايدا فيودورفنا ثم في عينيه ، قال :

— حسناً . لقد أطلنا الجلوس ، والآن يجب أن نذهب . وداعاً يا عرّابتي العزيزة . متعك الله بالصحة .

وقبل يديها كليهما ، وقال وهو يمسحهما بلطف إنه سيعود ليراها بعد يوم أو يومين . وفي الردهة راح يفتش في جيوبه عن منحة لى ، وهو يرتدى معطفه الذى يشبه دثار الأطفال ؛ ولكنه لم يجد شيئاً .

قال في حزن :

— وداعاً يا صديقي العزيز .

ثم مضى ، ولن أنسى أبداً ذلك الشعور الذى خلفه هذا الرجل وراءه .

ظلت زينايدا فيودورفنا تذرع الغرفة مضطربة ، وكان خيراً لها أن تذرع ولا تبقى مضطجعة . وقد أردت أن أتهز حالة الاضطراب هذه فأحدثها بصراحة ثم أرحل ، ولكنى ما كدت أشيع جروزين حتى سمعت رنين الجرس . كان بالباب كوكوشكين . قال :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟ هل رجع ؟ أتقول لا ؟

يا لله ! فى هذه الحالة سأدخل فأقبل يد سيدتك وأمضى .

صاح :

— زينايدا فيودورفنا ، هل لى أن أدخل ؟ أريد أن أقبل

يدك . معذرة لزيارتي المتأخرة .

لم يَمْضِ عليه في الثوى وقت طويل — لم يَمْضِ عليه أكثر من عشر دقائق — ولكنى أحسست أنه سيَطِيلُ البقاء فلا يذهب أبداً ، عضضت شفتى في غضب وضيق وحقدت على زينايدا فيودورفنا . قلت لنفسى : لم لا تطرده ؟ وكنت ساخطاً وإن كان من الواضح أنها ضيقة بصحبته .
 وحين ناولته معطف الفراء سألتنى ليدلنى على مودته الخالصة :

— كيف أعيش بغير زوجة .

وقال ضاحكاً :

— ولكنى لا أظنك تضيع وقتك . لا شك عندى أنك وبوليا حميان كلصين . يا وغد !

لم أكن في ذلك الوقت أعرف كثيراً عن البشر رغم تجربتى في الحياة ، وأغلب الظن أننى كثيراً ما ضخمت الشئ التافه ، وعجزت عن ملاحظة الشئ الخطير . بدا لى أن لكوكوشكين ما يدفعه إلى تملق والترثرة معى . أكان يأمل منى أن أطلق لسانى ، ففعل الخادم ، في المطابخ وغرف الخدم عن مجيئه لزيارتنا فى الأماسى التى يتغيب فيها أورلوف عن المنزل ، وعن بقائه مع زينايدا فيودورفنا إلى وقت متأخر من الليل ؟ فإذا ما انتهت ثرثرتى إلى أذان خلانه ، غض طرفه مرتبكا وأوماً بأصبعه . قلت لنفسى وأنا أنظر إلى وجهه الصغير المعسول : ألا يدعى هذا المساء نفسه وهو يلعب الورق أنه قد استمال زينايدا فيودورفنا وانتزعها من أورلوف ؟

تملكنى الآن ذلك الحقد الذى خذلى فى الظهر حين جاء الأب الشيخ . ذهب كوكوشكين آخر الأمر ، وإذ كنت أسمع صوت حذائه الطويل وهو يحتك بالأرض شعرت باغراء ملح فى أن أقذف وراءه رصاصة أو كلمة سباب غليظة ، ولكنى تمالكت نفسى . وحين كف وقع أقدامه على الدرج ، رجعت إلى الردهة ، وتناولت ، وأنا لا أكاد أعى ما أفعل ، رزمة الأوراق التى خلفها جروزين وراءه ، واندفعت أهبط الدرج ، وجريت فى الشارع دون معطف أو قبعة . لم يكن الجو بارداً وإن تساقط البرد وهبت الريح . صحت وأنا أقارب كوكوشكين :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !
فوقف تحت مصباح والتفت فى دهشة .
قلت لاهثاً :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !
وإذ لم أجد ما أقوله ، صفعته على وجهه مرتين أو ثلاثاً برزمة الورق . وكنت قد أخذته على غرة ، فسقط فى يده ولم يكذب يصدق عينيه ، ومال بظهره إلى المصباح ورفع يديه ليقى وجهه وفى تلك اللحظة مر طبيب عسكرى ورآنى أضرب الرجل ، ولكنه لم يعد أن نظر إلينا دهشاً ومضى .
استحييت ورجعت أعدو إلى المنزل .

أسرعت إلى غرفتي مبلل الرأس من الجليد وأنا ألقف أنفاسي ، وألقيت سترة الخادم ، وارتديت سترة بجمار ومعطفاً وحملت حقبتى إلى الردهة . ولكنى قبل أن أذهب أسرعت فجلست وبدأت أكتب لأورلوف . قلت :

« أترك لك جوازي الزائف ، وأرجو أن تحتفظ به للذكرى ، أيها الرجل الزائف ، أيها الموظف البطرجي !

« ستقول : سواء عليك أن تسرق أو تدخل إلى بيت رجل آخر باسم مستعار ، وترقب الحياة الداخلية لذلك الرجل من تحت قناع الخادم ، وتستمع إلى كل شئ وترى كل شئ ، حتى بتمه فيما بعد بالكذب دون أن يطلب إليك ذلك . أجل ، ولكننى لا أبالى الآن بشئ من هذه الأحاسيس اللطيفة لقد تحملت عشرات من وجبات غدائك وعشائك ، قلت فيها ما شئت وفعلت ما شئت ، وكان على أن أسمع وأنظر وألزم الصمت . أنا لا أريد أن أقدم لك صمتى هدية . ثم إذا لم يكن بين الأحياء من يخبرك بالحقيقة دون ملق ، فليغسل لك خادمك ستيفان وجهك البديع . »

لم تعجبني هذه البداية ، ولكنى لم أعن بتغييرها .
تم ما قيمة ذلك ؟

كانت النوافذ الكبيرة يستأثرها الداكنة ، والفراش ، والسترة المجددة الملقاة على الأرض ، وآثار أقداغنى المبتلة —

كانت كلها تبدو كثيبة موحشة . وران سكون غريب .
 كنت محموماً ولعل ذلك لأنى ركضت فى الشارع دون
 قبة أو حذاء طويل . التهاب وجهى وألمتني رجلاى . . .
 وانحنى رأسى الثقيل على المائدة ، وتبلبل خاطرى كما يحدث
 حين يبدو أن كل فكرة فى الذهن يطاردها شبح لها .
 مضيت أقول :

« أنا مريض ، ضعيف ، خائر النفس ، لا أستطيع أن
 أكتب إليك كما كنت أحب أن أكتب . لقد اشتيت منذ
 اللحظة الأولى أن أهينك وأذلك ، ولكنى أرى الآن أن ليس
 ذلك من حقى . لقد سقطنا كلانا ، ولن ينهض واحد منا من
 جديد ، ولو أن خطابى كان متدفقاً عنيفاً حاراً لبدا مثل الضرب
 على غطاء تابوت : مهما يضرب المرء عليه فهو لن يوقظ الميت !
 لا شئ يستطيع أن يبعث الحرارة فى دمك البارد اللعين ،
 وأنت تعلم ذلك خيراً منى . لم أكتب ؟ إن ذهنى وقلبى ليحترقان
 وأنا أمضى فى الكتابة . إن شيئاً ما يدفعنى كأن هناك أملاً
 فى أن ينقذنا كلينا هذا الخطاب . أنا محموم وأفكارى مشوشة ،
 وقلمى يخز الورق دون معنى . ولكن السؤال الذى أريد
 أن أوجهه إليك ينهض أمامى كأن أحرفه من نار .

« ليس من العسير أن أشرح لك سبب ضعفى وسقوطى قبل
 الألوان . لقد وضعت على كتفى ، مثل شمشون القديم ، أبواب
 غزة لأحملها إلى قمة الجبل ، ولم أتبين إلا حين أدركنى
 لإجهاد ونضب فى الشباب والصحة ، أن ذلك الحمل لم يكن

لكتفى ، وأنى خدعت فى نفسى ، ثم إنى كنت أتلأ أتلأ مستمراً قاسياً . لقد احتملت البرد والجوع والمرض والحرمان من الحرية . لم أعرف قط السعادة الشخصية وما زلت جاهلاً بها ، ليس لى بيت ، وذكرىاتى مريرة كثيراً ما ترهب ضميرى . ولكن لم سقطت أنت - أنت ؟ أى أسباب مميتة شيطانية حالت دون تفتح زهرة حياتك ؟ لم عجلت ، وأنت لم تكبد تبدأ حياتك ، بأن تنحى عنك صورة الله ورسمه ، وتغدو ذلك الحيوان الجبان الذى يؤخر غيره ويخيفه لأنه هو نفسه خائف ؟ أنت تخشى الحياة خشية الشرقى الذى يقعد نهاره كله على الحشية يدخن غليونيه . نعم أنت تقرأ كثيراً ، والسترة الأوربية تلائمك ، ولكن يا حرصك الرقيق ، حرصك الشرقى الخالص الذى يشبه حرص الباشا ، على وقاية نفسك من الجوع والبرد والمجهود الجسمى ، وقايتها من الألم الضيق ! ما أسرع ما اعتادت نفسك الانطواء فى عباها ! يا لجبنك إزاء الحياة الحققة ، والطبيعة الحققة ، اللتين يصارعهما كل رجل صحيح سليم ! يا لنعومتك ورقتك ودفنك وترفك ، ويا لسأمتك أيضاً ! نعم هى السأمة القاتلة ، لا ينفذ إليها شعاع واحد من الضوء كأنها السجن المنفرد ، ولكنك تحاول أن تحتبئ أيضاً من ذلك العدو ، فتلعب الورق ثمانى ساعات من أربع وعشرين ساعة . « وسخريتك ؟ آه ، كم أحسن فهمها ! إن الفكر الحر الشجاع الحى لا يزال يبحث ويتسلط ، ولكن العقل الراكد البطئ لا يطيق الفكر ، ولقد أسرع فى شبابك مثل كثير

من معاصريك ، فقيدت فكرك وسجنته حتى لا تعكر صفوك . وإن نظرتك الساخرة إلى الحياة ، أوسمها ما شئت ، هي درعك وقد أصبح فكرك المقيد المفزّع لا يجرؤ على تجاوز السد المحيط به وأنت حين تسخر من الآراء التي تدعى المعرفة الكاملة بها ، مثل الهارب من ميدان القتال يموه خجله بالضحك من الحرب والشجاعة . إن السوداوية تخنق الألم . لقد داس رجل شيخ بقدميه في إحدى قصص دستوفسكى على صورة ابنته المحبوبة ، لأنه كان قاسياً عليها . وأنت تقذف أفكار الحقيقة والفضيلة بنكاتك القبيحة السوقية ، لأن القدرة على اتباعها تعوزك . أنت تخشى كل تلميح مخلص شريف إلى انحلالك . فتعتمد إلى أن تحوط نفسك بأناس همهم تملق ضعفك . أنت محق ، أنت محق إذ تخشى رؤية الدسوع !

« ولنمر أيضاً بنظرتك إلى النساء . إن الإباحة تجري في لحمنا ودمنا ، وعلى الإباحة درجنا . ولكن الرجل إنما كان رجلاً لقهره الحيوان الذى فيه . إنك حين أصبحت رجلاً وعرفت كل الأفكار ، ما كانت رؤية الحقيقة لتفوتك . لقد أدركتها ولكنك لم تتبعها . لقد خشيتها . وبدأت — كما تخدع ضميرك — تعلن مؤكداً لنفسك أن اللوم يقع على المرأة لا عليك ، أن المرأة سافلة كنظرتك إليها . إن حكاياتك الباردة الفظة ، وضحكك الغليظ ، ونظرياتك عن الفكرة الكامنة وراء الزواج ، وعن المطالب غير المحدودة التي تترتب عليه ، وعن عشرة المليارات التي يدفعها العامل الفرنسى لامراته ، وحملاتك

الدائمة على منطق المرأة وكذبها وضعفها إلى غير ذلك — ألا يبدو ذلك كله رغبة في دفع المرأة بأى ثمن إلى الوحل ، حتى تستوى ونظرتك إليها ؟ أنت امرؤ ضعيف ، شقى ، بغىض . »

بدأت زينايديا فيدورفنا تعزف على البيان في الثوى ، تحاول أن تسترجع أغنية سان سانس التى عزفها جروزين . ولكن ما ذكرت أن قد أزف وقت رحيلى حتى نهضت في جهد برأس ثقيل مشتعل وذهبت إلى المائدة مرة أخرى . مضيت أكتب :

« ولكن إليك السؤال ، لم أدركنا البلى ؟ لقد بدأنا مغممين بالحرارة والشجاعة والشرف والإيمان ، فلم أفلسنا إفلاساً تاماً في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ؟ لم يذوى أحدنا بالسبل ، ويصوب الآخر رصاصة إلى رأسه ، ويلتمس الثالث النسيان في الفودكا والورق ، بينما يحاول الرابع أن يخنق رعبه وشقائه بأن يدوس بقدميه ناقماً تلك الصورة المثية — صورة شبابه الجميل ؟ لم لا نحاول إذا سقطنا مرة أن نهض ثانية ، وإذا فقدنا شيئاً أن نبحت عن غيره ؟ لم ذلك ؟ »

« إن اللص المصلوب ليستطيع أن يستعيد فرح الحياة وشجاعة الأمل الواثق وإن لم يبق له في الحياة غير ساعة . إن أمامك أعواماً كثيرة ، وربما عشت أنا أكثر مما يظن . فماذا علينا لو استحال الحاضر حلماً أو كابوساً مخيفاً ، ثم نصحو وقد بعثنا أطهاراً أقوياء نفخر باستقامتنا ؟ إن الخيالات الحلوة تحرقنى ، وأنا أكاد ألهث من الانفعال . إن بى شوقاً عنيفاً إلى الحياة . أنا أتوق إلى أن تكون حياتنا قدسية رفيعة سامية

كالسموات التى فوقنا . لنعش ! إن الشمس لا تشرق مرتين
فى اليوم ، ولن توهب لنا الحياة مرة ثانية — فتعلق بما بقى
من حياتك وأتقذه . . . »

لم أزد كلمة . لقد كان يدور برأسى حشد من الأفكار ولكنى
لم أستطع أن أربط بينها وأسطرها على الورق . وقعت على الخطاب
— دون أن أتمه — باسمى ورتبى ، وذهبت إلى غرفة المكتب .
كانت الغرفة مظلمة فتحسست النضد ووضعت الخطاب فوقه
ولا بد أنى عثرت فى الظلام بالأثاث وأحدثت ضجة . فقد
سمعت فى الثوى صوتاً مدعوراً ينادى :
— من هناك ؟

فى تلك اللحظة دقت الساعة التى على النضد الواحدة
دقاً لطيفاً .

١٣

بقيت نصف دقيقة على الأقل أبحث عند الباب فى الظلام
عن المقبض . ثم فتحته ببطء ودخلت الثوى . كانت زينايدا
فيودورفنا مستلقية على الأريكة ، فنظرت نحوى وقد نهضت على
مرفقيها . سرت بجانبها فى أناة وقد خائنى النطق وهى تتبغى
بعينيها . لبثت فترة قصيرة فى غرفة المائدة ثم عدت فمررت
بها وهى تفحصنى بنظرها مرتبكة بل مدعورة . وقفت أخيراً
وقلت فى جهد :

— إنه لن يعود .

فنهضت على قدميها مسرعة ونظرت إلى دون أن تفهم .
فرددت وقد اشتدَّت خفقان قلبي :

— إنه لن يعود . إنه لن يرجع لأنه لم يغادر بطرسبرج .
إنه في بيت بكارسكى .

رأيت من شحوبها المفاجئ ومن الطريقة التي وضعت بها
يديها على صدرها مذعورة متوسلة — أنها قد فهمتني وصدقني .
وفي لحظة واحدة لمح بخاطرها كل ما قد حدث ؛ تأملت ورأت
الحقيقة كلها في وضوح لا يرحم . ولكنها ذكرت في الوقت
عينه أنى خادم ، أنى مخلوق أدنى منها مرتبة . . . ذكرت أن
غريباً عابراً ، أشعث الشعر ، محمر الوجه من الحمى — ولعله
سكران — يرتدى معطفاً عادياً ، قد تدخل بخشونة في حياتها
الخاصة . فأغضبها ذلك .

قالت لى بصرامة :

— ليس هذا شأنك . اذهب .

فصحت في حرارة وقد مددت إليها يدي :

— صدقيني . أنا لست خادماً . أنا حر مثلك .

ذكرت لها اسمي ، وأخذت أسرع في الكلام حتى
لا تقاطعني أو تنصرف عني ، فكشفت لها عن نفسي وعن سبب
إقامتي بالمنزل . صعقتها هذا الكشف الجديد أكثر مما صعقت
للاول . لقد كانت تأمل في أن يكون خادمها كاذباً أو مخطئاً
أو مغفلاً ، ولكن لم يبق لديها الآن شك بعد اعترافي . رأيت
من الشقاء المرتسم على عينيها ووجهها الذي فقد نعومته وجماله

فجأة وبدت عليه الشيخوخة ، أنها كانت فى بؤس لا يطاق ،
وأن الحديث لا يعود بخير ، ولكنى مضيت أقول متدفقاً :
— لقد اخترعت قصة الشيخ والدورة التفتيشية لخديعتك .

إنه لم يرحل فى يناير كما لم يرحل الآن . بل نزل لدى بكارسكى
وكنت أراه كل يوم وأشارك فى الخديعة . كان قد سئمك وكره
إقامتك هنا ، كان يسخر منك . . . لو أنك سمعت سخريته
هو وأصدقائه بك وبجبك لما بقيت هنا لحظة واحدة ! ارحلى
من هنا ! ارحلى !

قالت بصوت مرتعش وهى تمر يدها على شعرها :
— حسناً ، حسناً ، ليكن .

كانت عيناها مليئتين بالدموع ، وشفتاها ترتعدان ، وقد
شحب وجهها كله شحوباً شديداً وشوّهه الغضب . أسخطها
كذب أورلوف الوضع وبدا لها حقيراً مضحكاً ، وابتسمت
ولم ترقى تلك البسمة .

رددت وهى تمر يدها على شعرها ثانية :
— حسناً ، ليكن . إنه يظن أنى سأموت قهراً . ولكنى ...
مسرورة . لا حاجة به إلى أن يختبئ .

ثم ابتعدت عن البيان وقالت بهزة من كفتها :
— لا حاجة إلى ذلك . . . كان الأيسر أن يكشفنى
لا أن يختبئ فى بيوت الناس . إن لى عينين ، لقد رأيت ذلك
بنفسى منذ أمد بعيد . لقد كنت أنتظر عودته حتى نصفى
كل شئ وننتهى .

ثم جلست على مقعد واطىء بجوار المائدة وبكت بكاء مرّاً
وقد مالت برأسها على ذراع الأريكة . لم يكن فى الثوى غير
شمعة واحدة مضيئة فى حامل الشموع ، وكان الكرسي الذى
تجلس عليه فى الظلام ، ولكنى رأيت رأسها وكتفها ترتعد ،
وشعرها يتفلت من أمشاطها ويغضى عنقها ووجهها وذراعيها ...
كان بكأؤها الهادى المتصل الذى لا تشنج فيه وإنما هو
البكاء العادى لامرأة ، يعبر عن شعور بالاهانة والكبرياء
الجريحة والإساءة ، وشئ بائس يائس لا يستطيع المرء أن
يصلحه أو يألّفه . حركت دموعها صدى فى قلبى الشقى
المعنى ، فنسيت مرضى ونسيت كل شئ فى الوجود ، وأخذت
أذرع الثوى وتمتت شاردّاً :

— أهذه هى الحياة ؟ لا يستطيع المرء أن يستمر فى
العيش على هذا النحو — لا يستطيع . إن هذا جنون وشر
لا حياة .

قالت بين دموعها :

— يا للمذلة ! أيعيش معى ، ويدسم لى ، فى الوقت
الذى يجدنى فيه عبثاً عليه ، ويرانى شيئاً مضحكاً أمام عينيه ؟
أوه ، يا للمذلة !

رفعت رأسها وسألتنى ، وهى تنظر إلى بعينين مخضلتين
من خلال شعرها الذى بلّته الدموع :

— أكانوا يضحكون منى ؟

— لقد كنت مضحكة عند هؤلاء الناس ، أنت وحبك

وترجيف ، لقد كانوا يقولون إن رأسك مليء به . ولو متنا معاً من اليأس لأضحكهم ذلك أيضاً ، وجعلوا منه حكاية طريفة يرددونها في قداسك .

ثم قلت نافذ الصبر :

— ولكن لم الحديث عنهم ؟ ينبغي أن نرحل من هنا . أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لحظة بعد الآن .

عادت تبكي ، بينما ذهبت أنا إلى البيان وجلست . سألتها وقد ضاق صدرى :

— ماذا تنتظرين ؟ الساعة الثانية .

قالت :

— أنا لا أنتظر شيئاً . أنا مضیعة تماماً .

— لم تتكلمين كذلك ؟ الخير أن نتأمل معاً فيما ينبغي أن نفعل . إننا كلنا لا نستطيع أن نبقى هنا . فالى أين تنوين الذهاب ؟

دق الباب فجأة ، فوقف قلبى . أيمكن أن يكون أورلوف ، فر بما شكائى كوكوشكين إليه ؟ كيف نلتقى ؟ ذهبت أفتح الباب . لقد كانت بوليا . دخلت تنفض الجليد عن دثارها ، وذهبت إلى غرفتها دون أن تفوه بكلمة . وحين رجعت إلى الثوى كانت زينايدا فيودورفنا واقفة فى وسط الغرفة شاحبة كاللوت تنظر نحوى بعينين كبيرتين .

سألت بلطف :

— من الطارق ؟

أجبت :

— بوليا .

فمرت بيدها على شعرها وأغمضت عينيها متعبة . قالت :

— سأرحل فوراً . أتتكرم باصطحابي إلى عدوة بطرسبرج ؟

كم الساعة الآن ؟

— الثالثة إلا ربعاً .

١٤

حين خرجنا من المنزل بعد قليل كان الطريق مظلماً
سهجوراً ، وكان الجليد المائع يتساقط والريح الباردة تنفح
الوجه . أذكر أننا كنا في بداية مارس وقد بدأ الثلج يذوب ،
واستعمل سائقو العربات العجلات منذ أيام . كانت زينايدا
فيودوروفنا محطمة خائفة القوى من أثر الدرج الخلفى والبرد
وظلام منتصف الليل ، والبواب ذى الفروة الذى استجبونا
قبل أن يفتح لنا البوابة . وحين ركبنا العربة ورفع غطاؤها
بدأت تعبر عن شكرها لى وجسمها كله يرتعد .

تمت :

— أنا لا أشك في حسن نيتك ولكن يخجلنى أن أثقل
عليك . أوه ، أنا أفهم ، أنا أفهم . . . لقد أحسست حين
كان جروزين عندنا اليوم أنه يكذب ويخفى عني شيئاً .
حسناً ، ليكن . ولكنى على أية حال خجلة إذ أثقل عليك .
كانت ما تزال تشك . ولكى أبدد شكوكها سألت السائق

أن يسير في شارع سرجيفسكى ، ثم أوقفته عند باب بكارسكى ونزلت من العربة ودققت الجرس . فلما جاء البواب صحت سائلا لتسمع زينايدا فيدوروفنا :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟

كان الجواب :

— نعم ، منذ نصف ساعة ، ولعله الآن في الفراش . ماذا تريد ؟

لم تستطع زينايدا فيدوروفنا إلا أن تبرز رأسها من العربة . سألت :

— هل أقام جورجى إيفانتش هنا منذ زمن طويل ؟

— منذ ثلاثة أسابيع .

— ولم يرحل ؟

فأجاب البواب وهو ينظر إلى دهشاً :

— كلا .

قلت :

— أخبره في صباح الغد أن أخته حضرت من وارسو . وداعاً .

ثم سرنا . ولم يكن للعربة غطاء فكان البرد يسقط علينا نثاراً كبيراً ، والريح — وبخاصة على النيفا — تحترق أجسامنا مرة بعد مرة . خامرني الإحساس بأننا كنا نسير منذ أمد بعيد ، وأنا لبشنا دهوراً نتعذب ، وأنى أنصت منذ أجيال إلى أنفاس زينايدا فيودوروفنا المرتعدة . أخذت أسترجع فيما يشبه الهذيان — وكأنى وسنان — حياىى الغريبة المضطربة ، وذكرنى ذلك

لأمر ما بمأساة « الشحاذين الباريسيين » التي رأيته مرة أو مرتين في طفولتي . وحين أردت أن أنفض عن نفسي ذلك الهذيان فأطلت من العربة ، ورأيت الفجر ، انعقدت خيالات الماضي والأفكار الغائمة في فكرة واحدة قاهرة : أن قد انتهى أمرى وأمر زينaida فيودوروفنا دون رجعة . اعتقدت ذلك كأن السماء الزرقاء الباردة كانت تنطوى على نبوءة ، ولكن ما مرت على دقيقة حتى كنت أفكر في شيء آخر وتبدل اعتقادي . قالت زينaida فيودوروفنا بصوت أخشنه البرد والرطوبة :

— ما أنا الآن ؟ أين أذهب ؟ ماذا أعمل ؟ لقد قال لي جروزين ادخلي الدير . وددت لو فعلت . وددت لو غيرت ملابسى ووجهى واسمى وأفكارى . . . كل شيء — كل شيء ، واختفيت إلى الأبد . ولكنهم لن يقبلوني . إني حامل . قلت :

— سنذهب معاً إلى الخارج في غد .

— هذا محال . إن زوجى لن يعطينى جوازاً .

— سأخذك دون جواز .

وقفت السائق عند بيت خشبي ذي طبقتين داكن الطلاء . دَقَقْتُ الجرس . قالت زينaida وابتسمت لي بسملة شائمة وهي تأخذ منى سلتها الصغيرة الخفيفة وهي كل ما أحضرنا من متاع : — هذه هي جواهرى .

ولكنها كانت أضعف من أن تحمل تلك الجواهر .

مرت فترة طويلة قبل أن يفتح الباب . ولع بعد الدقة

الثالثة أو الرابعة ضوء فى النوافذ ، وسمع وقع أقدام وسعال وهمس ، وأخيراً صر المفتاح فى القفل وظهرت عند الباب امرأة فلاحه قوية يلوح الذعر على وجهها الأحمر . وقد وقفت غير بعيد منها شيخخة صغيرة نحيلة ذات شعر قصير أشهب ، تحمل فى يدها شمعة . ركضت زينايدا فيدوروفنا فى الممر وألقت ذراعيها حول رقبة المرأة العجوز . قالت منتحبة :

— نينا ! لقد خدعت . لقد خدعت بغلظة ودناءة .
نينا ! نينا !

ناولت السلة إلى المرأة الفلاحه . وأغلق الباب ولكنى بقيت أسمع بكاءها وصيحيتها : « نينا ! »

ركبت ، وأمرت سائق العربه أن يسير ببطء فى طريق نفسكى . كان على أن أفكر لنفسى عن مأوى ليلة .

ذهبت فى اليوم التالى قبيل المساء لأرى زينايدا فيدوروفنا . كانت قد تبدلت تبدلاً مروعاً . فليس على وجهها الشاحب الغائر آثار دموع ، وقد اختلفت سياها . لست أدرى أكان ذلك لأنى كنت أراها فى محيط جديد بعيد عن الترف ، ولأن علاقاتنا قد اختلفت ، أم لأن الحزن العميق قد وسمها بطابعه . لم ترعنى برشاقتها وأناقتها كما كانت تروعنى من قبل . لقد تضاعل جسمها ، وبدا عليها التسرع وثورة الأعصاب ، كأن شيئاً يعجلها ، ولم يعد لطفها القديم يلوح حتى فى ابتسامتها . كنت أرتدى حلة ثمينة اشتريتها أثناء النهار . فنظرت أول ما نظرت إلى تلك الحلة وإلى القبعة فى يدى ،

ثم ألقت على وجهي نظرة فاحصة عجلة كأنها تدرسه . قالت :
 — إن تحولك ما زال يبدو لي أشبه بمعجزة . أغفر لي
 تخديقي إليك بمثل هذا التطلع . أنت تعلم أنك رجل خارق .
 كشفت لها مرة أخرى عن شخصي ، وعن سبب إقامتي
 في منزل أورلوف ، وأفضت في الحديث عما قلته في اليوم السابق
 أصغت بانتباه شديد وقالت دون أن تدعني أتم :
 — كل شيء هناك قد انتهى عندي . أنت تعلم أني لم
 أستطع أن أصرف نفسي عن كتابة خطاب . إليك الجواب .
 قرأت في الورقة التي قدمتها إلى بخط أورلوف :

« لن أبرئ نفسي . ولكن يجب أن تعترف بأنك أنت
 المخطئة ، لا أنا . أتمنى لك السعادة وأضرع إليك أن تسرعى
 بالنسيان .

. « المخلص

« ج . ا

« حاشية : أرسل مع هذا أشياءك . »

كانت الحقائق والسلال التي بعث بها أورلوف قائمة في
 المر وإلى جانبها حقيبتى الصغيرة الحقيبة . بدأت زينايدا
 فيدوروفنا تقول :

— إذن . . .

ولم تتم ، وران علينا الصمت . ثم تناولت الورقة وجعلتها

أمام عينيها برهة وقد بدا على وجهها من الترفع والاحتقار والكبرياء والخشونة ما كان يبدو عليه أمس عندما أخذنا نتفاهم . واندفعت إلى عينيها الدموع — دموع ليس فيها ضعف ولا مرارة ، بل كبرياء وغضب . قالت وقد نهضت بغتة ومشت إلى النافذة كي لا أرى وجهها :

— اسمع . لقد عزمت على أن أصحبك غداً إلى الخارج .

— أنا سعيد جداً . أنا مستعد للرحيل اليوم .

— اقبلنى مجنّدة .

وسألت بغتة وهى تلتفت إلى :

— أقرأت بلزاك ؟ أقرأته ؟ إن البطل فى نهاية قصته

« الأب جوريو » ينظر إلى باريس من قمة تل ويتوعد المدينة

بقوله : الآن نصفى حسابنا . ثم يبدأ بعد ذلك حياة جديدة .

وكذلك أنا حين أنظر من نافذة القطار إلى بطرسبرج للمرة

الأخيرة سأقول : الآن نصفى حسابنا .

قالت ذلك وابتسمت لفكاهتها ، ولأمر ما ارتعد جسمها كله .

انتابتنى فى البندقية نوبة من التهاب الغشاء الرئوى ،

ولعلى بردت فى المساء حين ركبنا الزورق من المحطة إلى فندق

باور . فاضطرت إلى ملازمة الفراش أسبوعين . كانت زينايدا

أثناء مرضى تأتيني كل صباح من غرفتها لتشرب القهوة معى ،

ثم تقرأ لى كتباً فرنسية وروسية اشترينا عدداً منها من فينا .

كانت تلك الكتب إما مألوفة لدى منذ عهد بعيد أو مجموجة لا تلذنى . ولكنى كنت أسمع إلى جانبى صوتاً حنوناً فكانت خلاصة هذه الكتب كلها شيئاً واحداً : أنى لست وحيداً . كانت تخرج أحياناً لتتمشى ، وتعود فى ثوبها الرمادى الرقيق وقبعته الخفيفة المصنوعة من القش ، وهى مرحة قد أدفأتها شمس الربيع ، وتحدثنى ، وقد جلست على سريرى وانحنت على ، بشىء عن البندقية ، أو تقرأ لى تلك الكتب — وكنت سعيداً .

كنت أخشى البرد والمرض والكآبة فى الليل ، ولكنى فى النهار كنت أطيّر فرحاً بالحياة — ولست أجد عن ذلك تعبيراً خيراً من هذا . فعلت بى الأعاجيب أشعة الشمس الدافئة تدخل من النوافذ المفتوحة ومن باب الشرفة ، والصيحات فى أسفل ، وصفق المجاديف ، ورنين الأجراس ، وصوت المدفع فى الظهر ، والشعور بالحرية التامة الكاملة . أحسنت كأنما نبت لى جناحان قويان عريضان يحملاننى إلى حيث يعلم الله . كم كان يفتننى ويطربنى التفكير فى أن حياة جديدة قد أصبحت جد قريبة منى ! أنى الخادم والوصى والصديق ورفيق الرحلة الحميم لكائن شاب جميل ثرى ولكنه ضعيف وحيد مهان ! ربما كان فى المرض لذة إذا علمت أن بعض الناس يتربص إبلاك كما يتربص العيد . سمعتها يوماً تهمس وراء الباب مع طبيبى ثم جاءت إلى بعينين تجرى فيهما الدموع . كان ذلك بادرة سوء ولكنى تأثرت له ، وهفا قلبى .

ولكنهم سمحوا لى أخيراً بأن أخرج إلى الشرفة . كان
 صحوۃ الشمس ونسيم البحر يلاطقان جسمى العليل ويهددهدانه .
 كنت أنظر إلى الجندولات المألوفة تجرى على الماء فى بهاء
 أنشوى وديعة رفيعة كأنها تنبض بالحياة . وشعرت بترف تلك
 الحضارة وأصالتها وسحرها . كانت تشيع فى الجو ريح البحر ،
 وسمع صوت آلة وترية يصاحبه غناء اثنين . يا للروعة ! لشد
 ما يختلف ذلك عن الليلة البطرجية التى كان فيها الجليد المائع
 ينفخ وجوهنا بشدة ! وإذا نظر المرء عبر القناة رأى البحر ،
 وقد انداح إلى الأفق وسطعت الشمس على المياه سطوعاً يؤذى
 العين أن تنظر إليه . كانت نفسى تنازعنى إلى ذلك البحر
 الجميل القريب الذى وهبته شبابى . كنت أتوق إلى الحياة —
 إلى الحياة ، ولا أريد بعدها شيئاً .

بعد أسبوعين بدأت أمشى كما أهوى ، كنت أحب أن
 أجلس فى الشمس وأنصت إلى النوتية دون أن أفهم عنهم ،
 وأرنبو الساعات الطويلة إلى البيت الصغير الذى يزعمون أن
 ديدمونة كانت تسكنه ، وهو بيت ساذج صغير كئيب رزين ،
 رقيق كالوشى ، خفيف حتى لبدو للمرء أنه يستطيع أن يرفعه
 من مكانه بيد واحدة . ووقفت طويلاً أمام ضريح كانوفا ،
 لا أقوى على تحويل طرفى عن الأسد الحزين . وفى قصر الدوج
 كان شئٌ يجذبنى دائماً صوب الركن الذى صور فيه باللون
 الأسود رسم مارينو فاليرو التعس . فكرت : جميل أن يكون
 المرء رساماً أو شاعراً أو كاتباً مسرحياً . ليتنى إذ حرمت ذلك

أسعى وراء التصوف . ليت لى ذرة من إيمان أزيدها إلى ما يملأ
النفوس من سكون وجلال .

وفى المساء كنا نأكل المحار ونشرب النبيذ ، ونخرج فى
جندول . أذكر أن جندولنا الأسود كان يترجح بلطف ولا
يبرح مكانه والماء يقرقر تحته ، وصور النجوم وأضواء الشاطئ
تنعكس على الماء هنا وهناك مرتعشة خفاقة . وغير بعيد منا
جندول علقت به مصابيح ملونة تنعكس على الماء ، وفيه
أناس يغنون . كانت تسمع فى الظلام أصوات القيثارة والكمان
والماندولين وأصوات الرجال والنساء . وكانت زينايدا فيدوروفنا
جالسة إلى جانبي شاحبة ، يبدو على وجهها الجد بل الصرامة ،
وهى ترم شفتيها وتعصر يديها . كانت تفكر فى شئ ما ،
ولا تطرف أو تسمعى . يالمتناقضات الحياة ! هى بوجهها
وسياها ونظرتها الثابتة الخالية من التعبير وذكرياتنا التسعة
الخفيفة الباردة ، وحولها الجندولات والأضواء والموسيقى والأغنية
المرحة تصحبها الصيحة الحارة : جامو . جامو . كنت أحس
حين تجلس كذلك عاقدة يديها جامدة حزينة ، أننا بطلان
فى قصة من القصص العتيقة الأسلوب اسمها « المنكوبون » أو
« المنبوذون » أو شئ قريب من هذا . هى المنكوبة المنبوذة ،
وأنا الصديق الحميم المخلص الحالم ، وإذا شئت فالرجل التافه
الفاشل ، الذى لا يقوى إلا على السعال والحلم ، وقد يستطيع
أن يضحى بنفسه . . . ولكن من ذا الذى يرغب فى توضيحاتى
الآن ؟ الحق ، ماذا عندى أضحي به ؟

كنا حين نعود في المساء نشرب الشاي دائماً في غرفتها
ونتحدث . لم نكن ننكص عن لمس الجراح القديمة الحية ،
بل لقد كنت لأمر ما أجد لذة حقيقية في أن أحدثها عن حياتي
في منزل أورلوف أو أصرح بذكر علاقات كنت أعرفها ولم يكن
إخفاؤها عني ممكناً . قلت لها :

— كنت أمقتك أحياناً . وأعجب حين يستولى عليه
النزق ، أو يتكاف اللطف ، أو يحدثك بالأكاذيب ، كيف
لا ترين ولا تفهمين والأمر كله واضح . لقد كنت تقبلين
يديه ، وتركعين له ، وتتملقينه . . .

— حين كنت . . . أقبل يديه وأركع له ، كنت
أحبه . . .

مضيت أقول وأنا أحس أن ليس لي الرفق والحدق
والوداعة التي يحتاجها المرء حين يقارب نفس غيره — ولم أكن
أدرك ذلك النقص في نفسي قديماً قبل أن أعرفها :

— أيمن أن يكون فهمه على حقيقته صعباً ؟ يا لأبي الهول
اللطيف ! أبو الهول حقاً . . . فتى صالون . . .

ثم قلت وقد زاد تلطفي وتهبي معاً :
— معاذ الله أن ألومك على شيء . ولكن كيف فاتك
أن تعرفي من هو ؟

قالت وقد غلبها التأثر :

— إذا كنت تعني أنك تحتقر ماضى فأنت محق . إنك
تنتمي إلى طبقة خاصة من الناس لا يحكم عليها بالمقاييس العادية

فأخلاقيتك قوية وأنا أفهم أن النسيان لا يدخل في طوقك .
أنا أفهمك ، وإذا ناقضتك في شيء فليس معنى ذلك أني أخالفك
في نظري إلى الأشياء . إن الهراء القديم يرين على حديثي لأنني
لم أجد بعد من الوقت ما أبلى فيه ثيابي القديمة وأوهامي
القديمة . أنا أيضاً أبغض ماضي وأحتقره كما أبغض أورلوف
وحبي . . . ما ذلك الحب ؟

ثم قالت وهي تذهب إلى النافذة وتنظر إلى القناة :
— إنه يبدو الآن سخيلاً ، إن هذا الحب كله لا يعدو
أن يغشى الضمير ويربك العقل . إن معنى الحياة لا يوجد
إلا في شيء واحد ، هو القتال : أن يدوس المرء بكعبه على رأس
الحية الشرير ويسحقه ! هذا هو معنى الحياة . إن كان للحياة
معنى فهو في هذا وإلا فلا .

قصصت عليها قصصاً طويلة عن ماضي . وحدثتها بمغامراتي ،
وكانت مغامرات مدهشة حقاً . ولكنني لم أحدثها بكلمة عن التبدل
الذي طرأ على . كانت تصغي إلى دائماً بانتباه شديد ، وتفرك
يديها في المواضع الشائقة من الحديث كأنما يحقنها أن لم يكن من
حظها تجربة تلك المغامرات والأفراح والخاوف . ثم تغرق بغتة في
التأمل وتنطوي على نفسها ، فأرى من وجهها أنها لا تصغي إلى .
أغلقت النوافذ المظلة على القناة وسألت :

— ألا نشعل النار ؟

قالت بابتسامة فاترة :

— كلا . لا بأس . أنا لا أحس البرد ، وليس بي سوى

الضعف . أتعلم أنى أظننى أصبحت حكيمة جداً فى الأيام الأخيرة ؟ إن لى الآن أفكاراً أصيلة خارقة . حين أفكر فى ماضى وفى حياتى إذ ذاك وفى الناس . . . عامة ، يتلخص لى الأمر كله فى صورة زوج أبى : خشونة ووقاحة وقسوة وزيف وضعة وإدمان مخدرات أيضاً . لقد تزوج أبى من أمى لملها ، وكان أبى هزيلا ضعيف الارادة ، وقد دفع بها إلى السل ، ولكنه أحب زوجته الثانية — زوج أبى — بحرارة وجنون . كم كان على أن أتحمل ! ولكن ما فائدة الكلام ؟ وكذلك يتلخص كل شئ فى صورتها كما قلت . . . ما أشد غيظى لأن زوج أبى قد مات ! وددت لو لقيتها الآن !

— لم ؟

قالت ضاحكة وحركت رأسها حركة لطيفة :

— لست أدرى . طابت ليلتك . ينبغى أن يصح جسمك فنستأنف عملنا حال شفائك . . . قد أزف وقت العمل .

قالت بعد أن رددت التحية ووضعت يدي على مقبض

الباب :

— ما رأيك ؟ أما تزال بوليا مقيمة هناك ؟

— ربما .

وذهبت إلى غرفتى . وكذلك قضينا شهراً كاملاً .

وفى صباح غائم رانت علينا السكابة لجأة ونحن واقفان

إلى جانب نافذتى ، ننظر إلى السحب الآتية من البحر ، وإلى القناة يخيم عليها الظلام ، ونتوقع كل لحظة أن تفيض بماء المطر ،

وننظر إلى البحر من وراء خيوط المطر الغليظة كأنها حجاب شفاف . في ذلك اليوم رحلنا إلى فلورنسا .

١٦

كان الخريف في نيس . دخلت غرفتها صباح يوم فوجدها جالسة على كرسي واطىء ، منحنية على نفسها ، متكورة ، معقودة الساقين ، قد أخفت وجهها في يديها . كانت تبكي بكاء مرأً وتنتحب وقد سقط شعرها الطويل غير المرجل على ركبتيها . فغادرني ما انطبع في نفسي من روعة البحر وجماله ، وكنت قد أحسست ذلك منذ قليل وجئت لأحدثها به . انصدع قلبي ، وسألت :

— ما بك ؟

فرفعت عن وجهها إحدى يديها وأشارت إلى بالخروج . فرددت :

— ما بك ؟

وقبلت يدها للمرة الأولى منذ تعارفنا . قالت بسرعة :
— كلا . لا شئ . لا شئ . آه ، لا شئ ، لا شئ .
اذهب . أنت ترى أنى غير مرتدية ثيابي .

خرجت مشدوهاً . وقد سم الاشفاق ما غلب على من سكون وهدوء . غالبني الشوق إلى أن أرتمي عند قدميها ، وأتوسل إليها ألا تبكي وحيدة ، بل تشاطرنى حزنها ، وأنهى همس البحر إلى أذنى نبوءة كثيبة ، ولاحت لى دموع جديدة ،

ومصاعب جديدة ، وخسائر جديدة في المستقبل . ساءلت
نفسى وأنا أستعيد صورة وجهها ونظرتها المعذبة : ماذا يبكينا ؟
ماذا ؟ وذكرت أنها حامل ، وقد حاولت أن تخفى حملها عن
غيرها من الناس وعن نفسها أيضاً . كانت تسير فى البيت
فى ثوب فضفاض أو دثار على صدره ثنيا كثيرة ، وحين كانت
تخرج إلى مكان ما كانت تحبك ثيابها حتى لقد أغمى عليها مرتين
ونحن فى الخارج . لم تحدثنى قط عن حالها ، وحين كنت أبح
لها بزيارة الطبيب ، كان وجهها يحمر خجلاً ولا تنطق بكلمة .
حين ذهبت أراها ثانية كانت قد ارتدت ملابسها ورجلت
شعرها . قلت وقد لاح لى أنها توشك أن تعود إلى البكاء :
— كفى ، كفى . خير لنا أن نذهب إلى البحر ونتحدث .
— أنا لا أستطيع الكلام . معذرة فأنا فى حال تحبب
إلى الوحدة . ثم أرجو منك يا فلاديمير إيفانتش حين تريد
دخول غرفتى مرة أخرى أن تتكرم فتدق الباب .
كان فى قولها « تتكرم » نبرة خاصة لا تمت إلى النساء .
ذهبت ، وعادتني نوبة بطرسبرج ، وسحق الحر أحلامى وأذواها
كأوراق الشجر . أحسست من جديد بأنى وحيد ، وأن لا قرب
بيننا . لم أزد عندها على أن أكون نسيج عنكبوت على نخلة
تعلق بها عفواً لتمزقه الريح وتذهب به . سرت فى الميدان
حيث كانت الجوقة تعزف ، وذهبت إلى الملهى ، وهناك نظرت
إلى نساء أسرفن فى ثيابهن وعطورهن ، وكانت كل واحدة منهن
تلمحنى وكأنها تقول : أنت وحيد ، لا بأس . ثم خرجت إلى

الشرفة ورنوت إلى البحر مدة طويلة . لم يكن على الأفق شراع واحد ، وعلى الضفة اليسرى وسط الضباب الوردى كانت هناك جبال وحدائق وأبراج وبيوت ، وكانت الشمس تتألق عليها ولكنها كانت جميعاً حشداً غريباً تافهاً لا معنى له .

١٧

كانت كعادتها من قبل تأتى إلى غرفتى فى الصباح لنشرب القهوة ، ولكننا لم نعد نتناول الغداء معاً ، إذ كانت تقول إنها لا تشعر بالجوع ، فكانت تعيش على القهوة والشاي وأشياء تافهة أخرى كالبرتقال وقطع الحلوى .

ولم نعد نتحدث فى المساء . ولست أدري للأمر سبباً . فمنذ اليوم الذى رأيتها فيه تبكى ، أصبحت تعاملنى بشئ من الإغضاء ، وأحياناً بشئ من التهاون بل السخرية ، وتدعونى لأمر ما « ياسيدى الكريم » . لم يعد يمسها ويشير حماسها وحسدها ما كان يبدوها من قبل مخيفاً رائعاً صادراً عن بطولة . أصبحت بعد أن تصغى إلى تتمطى عادة وتقول :

— أجل ، لقد حفلت الأيام السالفة بالأعمال العظيمة ياسيدى الكريم .

كان يحدث أحياناً أن تمر الأيام ولا أراها . كنت أقرع بابها مستحيياً متأثماً فلا أحظى بجواب ، وأعيد الدق — ولا شئ سوى الصمت . . . وأقف إلى الباب وأنصت ، فتمر بى الخادم وتقول ببرود : « لقد خرجت السيدة » فأجوس خلال ردهات

الفندق أمشي وأمشي . . . إنجليز ، وسيدات نواهد ، وندل ذوو سترات مذيعة . . . وحين أهدق في البساط المخطط الذى يمتد على مدى الدهليز ، يلمح في خاطرى أنى أؤدى فى حياة تلك المرأة دوراً غريباً ، قد يكون زائفاً ولكنى لا أقوى على تغييره . فأجربى إلى غرفتى وأسقط على سريرى وأفكر وأفكر ولا أستطيع أن أصل إلى نتيجة . وكل ما يتضح لى هو أنى أريد أن أعيش ، وأن ذهاب جمالها وبرودة وجهها وقسوته إنما تزيد قربها منى ، وتشعرنى بقربتنا شعوراً قوياً مؤلماً . لا بأس « بيا سيدى الكريم » ، لا بأس بما فى نبرتك من إهمال ، لا بأس بما شئت ، ولكن لا تتركينى يا حبيبتى . أنا أخشى الوحدة .

ثم أخرج إلى الدهليز مرة أخرى وأنصت مرتعداً . . . ولا أصيب عشاء ، ولا ألحظ اقتراب المساء . وأخيراً أسمع الوقع المألوف والساعة حول الحادية عشرة ؛ وعند المنعطف القريب من الدرج تظهر زينايدا فيدوروفنا ، وقد تسألنى وهى تمرى :

— أنت تتمشى؟ كان خيراً لك أن تخرج فى الهواء

الطلق . . . طابت ليلتك .

— ولكن ألا نلتقى اليوم ثانية؟

— أظن الليل قد تقدم . ولكن لك ما تحب .

فأسأل وقد تبعتها إلى غرفتها :

— حدثينى أين كنت .

فتخرج من جيبها عشر قطع ذهبية وتقول :

— أين ؟ فى مونت كارلو . أنظر يا سيدى الكريم !

لقد ربحت . لقد ربحت ذلك من الروليت .

— هراء ! كأنك تقامرین !

— ولم لا ؟ سأذهب غداً مرة أخرى .

تصورتها بوجهها العليل الكئيب وحالتها وثيابها المحبكة ، وهى واقفة إلى مائدة القمار وسط جمع من الغوانى والعجائز الخرفات ، احتشدن حول الذهب كما يحتشد الذباب على العسل . وبدأ لى أنها ذهبت إلى مونت كارلو لسبب تخفيه عنى . قلت لها يوماً :

— أنا لا أصدقك . لا يمكن أن تذهبي إلى هناك .

— لا تكدر نفسك . أنا لا أستطيع أن أخسر كثيراً .

قلت فى ضيق :

— ليس الأمر ما تخسرین . ألم يخطر لك قط وأنت تقامرین أن ما هناك من بريق الذهب والنساء الشواب والعجائز وكل ما يحيط بك ، إن هو إلا سخرية شريرة كريمة من عمل الكادحين ومن عرقهم الدامى ؟

سألت :

— إذا لم يلعب المرء فما عسى أن يعمل هنا ؟ تستطيع أن تؤجل إلى وقت آخر كل هذه الخطابة عن عمل الكادحين وعرقهم الدامى . ولكن الآن مادمت قد بدأت فدعنى أتم . دعنى أسألك دون مواربة ماذا أعمل هنا ؟ وماذا على أن أعمل ؟ قلت وهزرت كتفى :

— ماذا عليك أن تعملی ؟ هذا سؤال لا يجاب عليه بداهة .
 قالت وقد بدا على وجهها الغضب :
 — أرجو أن تجيبنى مخلصاً يا فلاديمير إيفانتش . ما دمت
 قد سألتك هذا السؤال فأنا لا أريد عليه إجابة محفوظة .
 ومضت تقول وهي تضرب ييدها على المائدة كأنها
 تقيس الزمن :

-- أسألك ماذا على أن أعمل هنا ؟ ليس في نيس وحدها
 بل على الإطلاق .

لم أتكلم بل نظرت من النافذة إلى البحر ، وكان قلبي يدق
 دقاً مخيفاً . قالت بلطف وهي تلتف أنفاسها ، فقد كان من العسير
 عليها أن تتكلم :

— فلاديمير إيفانتش ! فلاديمير إيفانتش ! إذا كنت
 لا تؤمن بمبدئك ، ولا تفكر في العودة إليه ، فلم خرجت بي
 من بطرسبرج ؟ لم علّنتني بالوعود ، وأيقظت في نفسي الآمال
 المجنونة ؟ لقد تغيرت معتقداتك ، لقد أصبحت رجلاً غير الذي
 كنته ، ولا أحد يلومك لذلك ، فليس أمر معتقداتنا بأيدينا
 دائماً ولكن . . . لكن لماذا بالله لا تكون مخلصاً يا فلاديمير
 إيفانتش ؟ ومضت تقول بلطف وهي تقترب مني : لم كتبت
 عن الحقيقة هذه الأشهر الطويلة التي كنت أجاهر فيها بأحلامي
 وأهذي وأنتشي بخططي ، وأعيد تشكيل حياتي ؟ لم كنت
 تصمت أو تشجعني بأفاسيئك ، وتسلك مسلك من يعطف على
 العطف كله ؟ لم كان ذلك ؟ ما الحاجة إليه ؟

قلت وقد التفت وإن لم أنظر إليها :

— من العسير أن يعلن المرء إفلاسه . أجل . إني لم أعد
أومن بشئ . لقد بليت . لقد خانني قلبي . . . عسير أن يصدق
المرء ، عسير جداً ، ولذلك عقلت لساني . لا قدر الله على أحد
أن يعانى ما عانيت !

أحسست أنى أكاد أبكى ، فسكت .

قالت وأمسكتنى بكتا يديها :

— فلاديمير إيفانبتش ! لقد عانيت فى الحياة كثيراً ،
ورأيت منها كثيراً . أنت تعلم أكثر مما أعلم . فاشحذ فكرك
وخبرنى ماذا يمكن أن أعمل . علمنى ! إذا لم تكن لك القوة
التي تدفعك إلى الأمام وتدفع غيرك معك ، فبين لى على
الأقل أين أذهب . أنا برغم كل شئ كائن حى حساس مفكر ،
يؤلمنى أن يستغرقنى وضع زائف ، وأن أؤدى دوراً سخيفاً . . .
أنا لا آخذ عليك شيئاً ، ولا ألومك ، وإنما أسألك .

أحضر الشاى . وقالت زينايدا وهى تناولنى كوباً :

— حسناً . ماذا تقول لى ؟

أجبت :

— إن فى الحياة من الضوء أكثر مما ترين من خلال
نافذتك . وهناك أناس غيرى يا زينايدا فيدوروفنا .

قالت فى اهتمام :

— إذن دلنى عليهم . هذا كل ما أسألك إياه .

فمضيت أقول :

— وأريد أن أقول أيضاً ، إن المرء يستطيع أن يخدم
الفكرة بأكثر من عمل . فإذا أخطأ المرء وفقد الايمان بعمل ما
إستطاع أن يجد غيره . إن عالم الأفكار كبير لا يمكن استنفاده
قالت وهي تنظر في وجهى متهمكة :

— عالم الأفكار! خير لنا أن نكف عن الحديث . ما الفائدة ؟
واحمر وجهها ، ورددت :

— عالم الأفكار ! وألقت فوطتها وارتم على وجهها
تعبير من الاشمئزاز والاحتقار : أرى أن أفكارك المملة كلها
تؤدي إلى خطوة جوهرية محتومة : أن أصبح خليلتك . هذا
مايراد . إن اعتناق المرأة الأفكار دون أن تصبح خليللة لرجل
شريف تقدمي يستوى وجهل تلك الأفكار . ينبغي البدء
بهذا . . . أى أن أصبح خليلتك ، وسيأتى الباقي من تلقاء نفسه .
قلت :

— أنت مضطربة يا زينايدا فيدوروفنا .

صاحت وقد ازدحمت الأنفاس في صدرها :

— كلا . أنا مخلصه فيما أقول . أنا مخلصه فيما أقول .

— ربما كنت مخلصه فيما تقولين ، ولكنك مخطئة ،
والاستماع إليك يؤذنى .
ضحكت :

— أنا مخطئة ؟ إذا صح أن يقول ذلك واحد من الناس
فلمست به يا سيدى العزيز . قد أبدو لك خشنة قاسية ولكنى
لا أبالى بذلك . أنت تحبنى . أنت تحبنى . أليس كذلك ؟

هزرت كتنفى ، فمضت تقول متهمكة :

— أجل ، هزرتك . لقد سمعتك تهذى وأنت مريض .
ورأيت من ذلك الحين العيون العابدة والزفرات ، والأحاديث
المشجعة عن الصداقة والقرابة الروحية . . . ولكن المسألة
هى : لم لم تكن مخلصاً ؟ لم أخفيت ما عندك وأظهرت
مالاً تضرع ؟ لو أنك صرحت منذ البداية بالأفكار التى جعلتك
تأتى بى من بطرسبرج ، إذن لعلمت . إذن لقتلت نفسى باسم
كما كنت عازمة أن أفعل ، ولما كان شئ من هذه المهزلة
المملة . . . ولكن مافائدة الكلام ؟

وجلست وهى تلوح بيدها . قلت وقد أحسست بالاهانة :
— أنت تكلميننى كأنك ترميننى بسوء المقصد .

— أوه ، حسناً . مافائدة الكلام ؟ أنا لا أريكم بأن
لك مقصداً بل بأن لا مقصد لك . فلو كان لك منه شئ لعرفته
الآن . لم يكن لديك غير الأفكار والحُب ، أما الآن فلديك
الأفكار والحُب ، ولديك للمستقبل أن أصبح خليلتك . كذلك
تجرى الأمور فى القصص والأفكار على السواء . ثم قالت وهى
تضرب المنضدة بيدها : لقد سببته لهذا ولكن المرء لا يستطيع
إلا أن يوافق . إن له ما يبرر احتقاره لهذه الأفكار .

صمت .

— إنه لا يحترق الأفكار بل يخشاها . إنه جبان كذاب .

— أوه ، ليكن . إنه جبان كذاب ، وقد خدعنى . .

وأنت ؟ — واغفر لى صراحتى — ما أنت ؟ لقد خدعنى هو

وتركتني أنتظر حظي في بطرسبرج ، وخذعتني أنت وتركتني هنا . وهو لم يخلط خدعته بالأفكار ، أما أنت . . .

صحت في رعب وأنا أضرب كفاً بكف وأسرع نحوها :
— لم تقولين هذا بالله ؟ كلا يا زينايدا فيدوروفنا ، هذه سوداوية منك . ومضيت أقول وقد تعلقت بفكرة لمحت في خاطري وبدا لي أن قد يكون فيها الخلاص لنا معاً : لا ينبغي أن تستسلمي لليأس . أنصتي إلى . اسمعي . لقد مررت في زمانى بتجارب كثيرة حتى ليدير رأسى التفكير فيها . وقد تحققت بعقلي ونفسى المعذبة أن الانسان لا يجد غايته الحقيقية إلا في أن يحب جاره حباً متفانياً . في سبيل هذا يجب أن نناضل ، وهذا هو هدفنا ! هذا هو إيمانى !

أردت أن أمضى فأتكلم عن الرحمة والمغفرة ، ولكن كان في صوقي نبرة لا تتم عن الصدق فارتبكت . قلت مختصاً :
— أريد أن أعيش ! أعيش ! أعيش ! أريد الهدوء والسكينة ، أريد الدفء ، أريد هذا البحر ، أريد أن تكونى بجانبى . آه كم أود أن أوقظ فيك مثل هذا الظمأ إلى الحياة ! لقد تحدثت الآن عن الحب ، ولكن حسبى أن تكونى قريبة منى ، وأن أسمع صوتك ، وأرى تعبير وجهك . . .

احمر وجهها وأسرعت تقول حتى تقطع كلامى :
— أنت تحب الحياة وأنا أمقتها . وكذلك ترى أن طرقتنا

متباينة .

صبت لنفسها بعض الشاى ، ولكنها لم تمسسه ،

وذهبت إلى غرفة النوم ورقدت . وقالت لي من الداخل :
— أظن من الخير أن تقطع هذا الحديث . لقد انتهى عندي
كل شيء ، وأنا لا أريد شيئاً . أبعد ذلك شيء يقال ؟
— كلا . لم ينته كل شيء .

— آه ، حسناً ، أنا أعلم . . . لقد مللت . . . كفى .
نهضت وأخذت أذرع الغرفة ثم خرجت إلى الدهليز .
وحين تقدم الليل ذهبت إلى بابها وأنصت . فسمعت صوت
بكاؤها واضحاً .

وفي الصباح أخبرني الخادم مبتسماً وهو يناولني أشياء
أن السيدة في رقم ثلاثة عشر تعاني الخاض . فارتديت ملابسى
كيفما اتفق وأسهرت إلى زينايدا فيدوروفنا يكاد يغشى على
من الرعب . وفي غرفتها وجدت طبيباً وقابلة وسيدة متقدمة
السن من خاركوف اسمها داريا ميخايلوفنا . كان الجو ينفج
بالأثير ، ولم أكد أتخطى العتبة حتى سمعت من الغرفة التى
كانت ترقد فيها أنه خافطة شاكية ، فمرت بخاطرى فكرة كأنما
حملتها الريح إلى من روسيا . فكرت فى أورلوف وسخريته وفي
بوليا ، وفي الجليد النافح ، ثم فى المركبة المكشوفة ، والنبوءة
التي قرأتها فى سماء الصباح الباردة ، وفى الصيحة اليائسة :
نيننا . نيننا .

قالت السيدة :

— ادخل إليها .

دخلت لأرى زينايدا فيدوروفنا ، وأنا أحس كأنى والد

الطفل . كانت راقدة مغمضة العينين يبدو عليها النحول والشحوب ، وعلى رأسها قلنسوة بيضاء موشاة الحاشية . أذكر قد كان يرتد على وجهها تعبيران : أحدهما بارد جامد غير أنه ، والثاني نظرة طفولة بائسة تضيفها عليها القلنسوة البيضاء . لم تسمعني حين دخلت أو لعلها سمعت ولكن لم تلق بالاً إلى ذلك . جلست ونظرت إليها وانتظرت .

ولكن وجهها كان متقلصاً من الألم . فتحت عينيها وحدقت في السقف كأنها تعجب مما يحدث لها . . . كان الازدراء مرتسماً على وجهها . همست :

— فظيع .

فنطقت اسمها بلطف :

— زينايدا فيدوروفنا .

فنظرت إلى نظرة فاترة غير آبهة وأغمضت عينيها . . . ووقفت هناك برهة قصيرة ثم انصرفت .

وفي الليل أخبرتنى داريا ميخايلوفنا بأن الطفل ، وهو أنثى ، قد ولد ، ولكن الأم في حالة خطيرة . ثم سمعت في الردهة ضوضاء وجلبة ، وجاءت إلى داريا ميخايلوفنا مرة أخرى وقد بدا على وجهها اليأس ، وقالت وهي تضرب كفاً بكف : — أوه ، هذا فظيع . إن الطبيب يرتاب في أنها تجرعت

سماً . آه ! كم يسيء الروس في سلوكهم هنا !

وفي الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى ماتت زينايدا

فيدوروفنا .

مضى غامبان ، وتبدلت الظروف ، فرجعت إلى بطرسبرج واستطعت أن أعيش بها دون استخفاء . لم أعد أخشى أن أكون عاطفياً أو أن أبدو كذلك ، واستولى على شعور الأبوة أو العبادة نحو سونيا ابنة زينايدا . كنت أطعمها بيدي ، وأحسُّها ، وأنيمها ، ولا أحول عيني عنها ليالى كاملة ، وأصبح إذا بدا لى أن المربية تكاد تسقطها . واشتد ظمئى إلى الحياة العادية واحتد على الأيام ، ولكن خيالاتى البعيدة كانت تنتهى عند سونيا ، كأنى قد وجدت فيها أخيراً كل ما كنت أحتاج إليه . أحببت الطفلة بجنون ، ورأيت فيها امتداداً لحياتى فتوهمت بل كدت أعتقد أنى حين ألقى عنى وجهى الطويل الأعجف الملتحى ، سوف أعيش من جديد فى تينك العينين الصغيرتين الزرقاوين ، وذلك الشعر الحريرى المغدودن ، وتلك الأيدى الوردية البضة التى تلمس وجهى فى حنان وتشتبك حول عنقى .

كان يشغلنى مستقبل سونيا . كان أورلوف أباهما ، وقد سميت فى شهادة الميلاد باسم كراسنوفسكى ، وكان الشخص الوحيد الذى يعلم بوجودها ويهتم بها — أى أنا — يقف على عتبة الموت . كان على أن أفكر فى أمرها تفكيراً جدياً .

ذهبت أرى أورلوف صبيحة وصولى إلى بطرسبرج . ففتح لى الباب شيخ قوى البنية أحمر العارضين محفى الشارب ، يبدو

كأنه ألمانى . ولم تعرفنى بوليا التى كانت ترتب الثوى ، ولكن أورلوف عرفنى فوراً . قال وهو ينظر إلى متطلعاً ويضحك :
— آه ! السيد الثورى ! أى قدر أتى بك ؟

لم يتبدل منه شئ . الوجه بتطريته وتنفيره ، والسخرية نفسها . وقد ألقى على النضد كتاب جديد كما كان يحدث قديماً ، فيه مدية من العاج . كان بلا ريب يقرأ قبل مجئى . أجلسنى وقدم إلى سيجاراً ، وقال بلطف لا تجده إلا فى عليّة الناس ، وهو يخفى الاحساس السئ الذى أثاره وجهى وجسمى الداوى ، إني لم أتبذل فى شئ ، وإنه يستطيع أن يحققنى حيثما رأتى برغم لحيتى . تحدثنا عن الجوع وعن باريس ، وسألنى ليتخلص بسرعة من السؤال الذى كان يثودنا كلينا :

— هل توفيت زينايدا فيدوروفنا ؟

أجبت :

— أجل .

— أثناء الوضع ؟

— أجل ، أثناء الوضع . وقد ارتاب الطبيب فى سبب

آخر للوفاة ولكن . . . خير لى ولك أن نظن أنها ماتت أثناء الوضع .

زفر مجاملاً وصمت . ورفرف علينا — كما يقال — ملاك

الصمت . قال متطلعاً وقد رأتى أجول بنظري فى الغرفة :

— أجل ، كل شئ هنا على ما كان عليه — لا تبديل .

أنت تعلم أن أبى ترك الخدمة ، وهو يعيش الآن فى عزلة .

ولا زلت أنا في المصلحة نفسها . أتذكر بكارسكي ؟ إنه كما عهدته دائماً . وقد مات جروزين بالدفتريا منذ عام . ولا يزال كوكوشكين حياً ، وكثيراً ما يتحدث عنك . ثم قال وهو يغض طرفه ويتحفظ : مادمننا نذكر كوكوشكين فقد بدأ منذ معرفته بشخصك الحقيقي يحدث الناس جميعاً بأنك هاجمته وحاولت قتله وبأنه نجا بحياته في عسر .

لم أتكلم .

فقال أورلوف مازحاً :

— إن الخدم القدماء لا ينسون سادتهم . هذا جميل منك . ألك في شيء من النبيذ والقهوة ؟ سأمر لك بشيء منهما . — كلا ، أشكرك . لقد أتيت إليك في أمر هام جداً يا جورجى إيفانتش .

— إن الأمور الهامة لا تروقنى . ولكن يسرنى أن أقوم بخدمتك . ماذا تريد ؟

بدأت أقول في شيء من الاضطراب :

— إن . . . إن معى هنا ابنة زينايدا فيدوروفنا . لقد عنيت بتربيتها حتى الآن ، ولكنى كما ترى هامة اليوم أو غداً ، وأحب أن أموت مطمئناً إلى أن أحداً يقوم بأمرها .

تبدل وجه أورلوف قليلاً ، وقطب وجهه شيئاً ، وألقى على نظرة سريعة غاضبة . إن « الأمر الهام » لم يؤثر فيه قدر ما أثرت فيه كلماتى عن الموت والهامة . قال وهو يظلل عينيه كأنما يتقى الشمس :

— أجل ، يجب التفكير في ذلك . أشكرك . أتقول إنها طفلة ؟

— أجل ، طفلة . طفلة رائعة !

— أجل ، دون شك . إنها ليست جرواً بل كائن بشري .
أجل ، يجب أن نفكر في الأمر بجد . أنا على استعداد لأداء ما على ، وأشكرك شكراً جزيلاً .

ثم نهض وأخذ يتمشى في الغرفة ويقرض أظفاره ووقف أمام رسم . قال في صوت أجوف وظهره إلى :

— يجب أن نفكر في ذلك . سأذهب إلى بكارسكى وأطلب إليه أن يذهب إلى كراسنوفسكى . أنا لا أظنه يحجم عن قبول الطفلة .

قلت وأنا أقف أيضاً وأسير إلى رسم معلق في الطرف الآخر من الغرفة :

— ولكن . اسمح لى . أنا لا أرى لكراسنوفسكى دخلاً في الأمر .

قال أورلوف :

— ولكنها تحمل اسمه بلا ريب .

— أجل . قد يجبر شرعاً على قبول الطفلة . لا أدري .

ولكنى لم آت إليك يا جورجى إيفانتش للحديث في الناحية الشرعية .

أسرع بموافقتى قائلاً :

— أجل ، أجل ، الحق معك . أظن أنى أهذى . ولكن

لا تغضب . سنسوى الأمر كما نهوى جميعاً . إذا لم ننجح في شئ حاولنا غيره ، فإذا لم ننجح حاولنا ثالثاً . ستحل هذه المسألة الدقيقة على نحو ما . سيرتب بكارسكى كل شئ . تكرم بترك عنوانك وسأخبرك بما استقر عليه رأينا . أين تسكن؟ كتب أورلوف عنوانى ، وزفر ، وقال مبتسماً :

— آه ، يا إلهى ! أى عبء فى أن يكون المرء أباً لطفلة! ولكن بكارسكى سيرتب كل شئ . إنه رجل عاقل . هل بقيت فى باريس مدة طويلة؟ — شهرين .

صمتنا . وكان واضحاً على أورلوف أنه يخشى أن أعود فأستأنف الحديث عن الطفلة . فقال ليحول إنتباهى إلى شئ آخر :

— لعلك نسيت الآن خطابك ، ولكنى احتفظت به . أنا أفهم حالتك إذ ذاك ، ولكن يجب أن أعترف لك أنى أحترم ذلك الخطاب . ومضى يقول ببسمة ساخرة : « الدم البارد اللعين » . « الأسوى » . « الضحك الغليظ » — كان ذلك رائعاً خليقاً بك . والفكرة الأساسية قد لا تبعد عن الحقيقة ، وإن أمكن للمرء أن يناقشها فلا ينتهى من ذلك — وتردد قليلاً — لا أعنى مناقشة الفكرة نفسها بل أعنى نظرتك إلى المسألة — أعنى مزاجك . أجل ، أنت محق فى قولك إن حياتى شاذة منحلة لا فائدة فيها لأحد ، وإن الجبن هو الذى يمنعنى من أن أبدأ حياة جديدة . ولكنك مخطئ كل الخطأ حين

تتناول الأمر جاداً ، وتضطرب له ، وتنتهى إلى اليأس — لست رشيداً فى ذلك .

— لا حيلة للكائن الحى فى الاضطراب والانحدار إلى اليأس حين ترى أنه هو نفسه يسير إلى الهلاك وأن الناس حوله يسرون إلى الهلاك أيضاً .

— من يشك فى ذلك ؟ أنا لا أدعو إلى عدم الاكتراث ، ولكن كل ما أطلبه هو النظرة الموضوعية إلى الحياة . فكما كنت موضوعياً قل تعرضك للخطأ . ينبغى على المرء أن ينظر إلى أصل الأشياء ويحاول أن يرى وراء كل ظاهرة السبب الذى تنبعث منه الأسباب الأخرى . لقد غدونا فى الحق ضعافاً خاملين منحطين . إن جيلنا كله إما ضعاف الأعصاب أو شكاءون . إننا لا نعمل شيئاً غير الحديث عن التعب والاجهاد ، ولكن الخطأ ليس خطأك أو خطئى ؛ إننا أضعف من أن نؤثر فى مصير جيل كامل . ينبغى أن نفترض لذلك أسباباً أعظم وأشمل ، ترتكز على علة بيولوجية . نحن ضعاف الأعصاب ، خونة خائرون ؛ ولكن لعل فى ذلك ضرورة وفائدة للأجيال القادمة بعدنا . لا تسقط شعرة من الرأس إلا بارادة إله السماء — وبعبارة أخرى : لا شئ يحدث اتفاقاً فى الطبيعة أو فى المحيط الإنسانى . لكل شئ سبب محتوم . وإذا كان الأمر كذلك فلم نشقى أنفسنا ونكتب رسائل يائسة . قلت وأنا أفكر قليلاً :

— هذا كله حسن . أنا أعتقد أن الأمور ستكون أوضح

وأيسر للأجيال القادمة ، وأنهم سينتفعون بتجربتنا . ولكن المرء يريد أن يعيش بمعزل عن الأجيال القادمة لا لخدمتها وحسب . إننا لا نوهب الحياة إلا مرة واحدة . والمرء يريد أن يحياها شجاعاً كامل الوعي متملياً جالها . إن المرء يريد أن يقوم بدور رائع مستقل نبيل . يريد أن يملأ على التاريخ فلا يعود لتلك الأجيال حق في أن يقولوا عن كل منا إنه عاش صغراً أو شراً من الصفر . . . أنا أومن بأن مايجرى حولنا أسر محتوم لا يخلو من هدف ، ولكن ما لى ولتلك الحتمية ؟ لم أفقد ذاتى ؟

تنهد أورلوف وهو يقف وكأنه يدلنى على أن حديثى قد انتهى :
— لا حيلة لنا فى ذلك .

أخذت قبعتى .

قال أورلوف وهو يشيعنى إلى الردهة :

— إننا لم نجلس معاً سوى نصف ساعة ومع ذلك فقد إتفقنا على مسائل كثيرة فى الواقع . وإذن فسأعنى بذلك الأمر . سأرى بكارسكى اليوم . . . لا تقلق .

وانتظر حتى ارتديت معطى ، وكان ظاهر الارتياح لخروجى قلت :

— أعد إلى خطابى يا جورجى إيفانتش .

— دون شك .

وذهب إلى مكتبه ، ثم عاد بالخطاب بعد برهة ، فشكرته وخرجت .

وتلقيت منه خطاباً في اليوم التالي يبشرني فيه بأن المسألة قد حلت حلاً مرضياً . قال إن بكارسكى يعرف سيدة تدير مدرسة أو شيئاً مثل روضة الأطفال ، يقبل فيها الأطفال الصغار . وهى سيدة يمكن الاعتماد عليها ، ولكن قبل الاتفاق معها على شئ يحسن تبادل الرأى مع كراسنوفسكى ، رعاية للمظهر . وقد أشار على بأن أقابل بكارسكى فوراً ، وأن آخذ معى شهادة الميلاد إن كانت عندى . « ثق بما يحمله لك خادمك المخلص من احترام صادق وولاء . »

قرأت هذا الخطاب وقد جلست سونيا إلى المائدة ترنو إلى منبهة لا تطرف ، كأنها كانت تعلم أن مصيرها يتقرر .

أصدرت دار الطائف المصرى بإشراف الدكتور طه حسين بك

*

ابراهيم المصرى — قلوب الناس [قصص]
 محمد سعيد العريان — من حولنا [قصص] ،
 على باب زويلة [قصة تاريخية مصورة]
 محمد عبد الحليم عبد الله — لقيطة
 [جائزة فاروق الأول للقصة]
 يحيى الخشاب — حكايات فارسية

*

إجناس جولدتسمير — العقيدة والمشرية
 فى الاسلام
 حسن عثمان — سافونارولا
 سلامه موسى — عقلى وعقلك ، تربية
 سلامه موسى
 عبد العزيز فهمى باشا — مدونة جوستينيان
 عبد العزيز البشرى — قطوف [جزآن]
 محمد الصادق حسين — البيت السبكي
 يوسف كرم — تاريخ الفلسفة الأوروبية
 فى العصر الوسيط

ه شارع قنطرة الدكة
 القاهرة مصر



موريس باريس — جنة على نهر العاصى
 هنرى برجسون — الضحك
 بيير بنوا — غانية أطلنطا
 أنطوان تشيكوف — قصة رجل مجهول
 إيفان ترجنيف — الحب الأول
 أندريه جيد — أوديب — ثيسوس ،
 الباب الضيق ، مدرسة الزوجات
 فيدور دوستوفسكى — المقامر
 ليون دوديه — كليمنصو وحياته العاصفة
 أ. دى سانت أكسوبرى — أرض البشر
 ستندال — دير بارم [جزآن]
 إميل لودفيج — نابليون [جزآن]
 أندريه موروا — وازن الأرواح
 فرانسوا مورياك — والدة ، عقدة الأفاعى
 بروسبير ميريميه — كولومبا
 أوسكار وايلد — صورة دوريان جراى ،
 شبح كانترفيل
 ه . ج . ولز — طعام الآلهة
 أولدس هكسلى — العالم الطريف

دار الكاتب المصرى
 شركة مساهمة مصرية